

لورد كرومر

أمام التاريخ^(١)

- ١ -

لو بقي جناب لورد كرومر عاماً واحداً في منصبه لعبدَ عيده الذهبي في خدمة دولته لأنه صرف حتى اليوم تسعة وأربعين عاماً في خدمة المصلحة البريطانية . ولقد أصدرت « الجريدة » أمس ملحفاً ذكرت فيه لمعة من ترجمته فيجمل بها اليوم أن تفصل أعمال ذلك السياسي العظيم وتدعها تنطق بما له وما عليه . قيل إن ضابطاً مدح نابليون قبل معركة في إيطاليا ، فقال له « انتظر حتى ترى أعمالي » فنحن رأينا أعمال اللورد ورأينا نتائجها ، فلنستنطقها في الحكم له أو عليه .

تنقسم أعمال اللورد في مصر قسمين : مالية اقتصادية وسياسية
أما أعماله المالية الاقتصادية فيبتدىء تاريخها في مصر سنة ١٨٧٧ إذ عين عضواً إنكليزياً في صندوق الدين المصري ، فأظهر لدولته من صدق النظر وسعة الاطلاع في المسائل المالية ما أساهمها القاعدة القائلة أن الذي يربى بين البنادق والمدافع « كالشباب أفطن بارتج » لا يعيل به طبعه الى المالية أو السياسة . وفي سنة ١٨٧٩ اتفقت الحكومتان البريطانية والحدوية على تعيينه مراقباً عاماً للمالية المصرية ، لأن انكترا كانت تهتم مع فرنسا أشد اهتمام بالمالية المصرية صوتاً لأموال الانكيز والفرنسويين ، فأظهر براعة كبيرة . وكان في جملة الذين مهدوا السبيل لاصدار قانون التصفية^(٢) الذي ضمن للدائنين الأوربيين أموالهم مع فائدتها . وقبل أن يصدر ذلك القانون حدث أن مالية الهند ارتبكت ارتباً شديداً فعينته حكومته عضواً مالياً في المجلس الهندي ، وهناك لم يفعل الا ما زاد حكومته ثقة به . ولما

(١) نشر بالعدد ٣١ من الجريدة في ١٣ من ابريل سنة ١٩٠٧ بعنوان «لورد كرومر أمام التاريخ»

(٢) في ٢ من ابريل سنة ١٨٧٩ ألفت لجنة للتصفية ، أي تمفية الديون المصرية لاوروبا ، وصدر قانوني

التصفية في ١٧ من يولية سنة ١٨٧٩ .

تقرر أن يغادر السير ادوارد ماليت معتمد انكلترا القطر المصري، لم تجدد الحكومة البريطانية رجلاً أخلاقياً بمنصبه من لورد كرومر (وكان لا يزال اسمه السير إلفن بارنج). ولما اجتمع مؤتمر لندرة سنة ١٨٨٤ للنظر في المالية المصرية كان فيه مندوباً محترماً الرأي. وكان يقول مثل كل عاقل انه لا يمكن الاصلاح في مصر قبل أن تقوم المالية فيه على أساس متين. ولا تقوم المالية على ذلك الأساس إلا اذا زادت مواردها ووثقت بها أوروبا. ولا تزيد مواردها إلا اذا تحسنت أحوال الري على الأخص فأصبحت أرض مصر تنبت من الخيرات كل ما تقدر على إنتاجه. وأما الموارد الأخرى كالجمارك والسكك الحديدية والبومستة وسائر مصادر الدخل، فأما تأتي في المقام الثاني. ولذلك أفرغ كل جهده لدى الدول حتى حملها على عقد قرض خصاً جزءاً منه بالري.

وما جاءت سنة ١٨٩٩ حتى صار دخل الحكومة ١١٤١٥٠٠٠ جنيهه وكان كلما زاد التحسن في المالية زاد في المساعدة على تخفيف الضرائب، غير أن النفقات كانت طائلة بسبب فوائد الديون ووفقات المشروعات.

وكان لدى لورد كرومر مشروعان يؤلمان به ويشكو منهما. أولهما: صندوق الدين. والثاني: وهو متعلق به تخصيص ما قيده قانون التصفية بالديون كالدائرة السنوية والدومين ونحو نصف دخل السكك الحديدية، فلم يجد من وسيلة للخلاص من هذين المشروعين سوى الاتفاق مع فرنسا أولاً. وحدث أن جلالة الملك ادوارد مال الى هذا الاتفاق وحببه الى حكومته، فاعتزم كرومر الفرصة وأيده بما استطاع، كما ذكر أخيراً في حديثه مع مراسلي الطان.

أما السبب الذي حمل لورد كرومر على الشكوى من صندوق الدين مراراً في تقاريره، فهو ان الصندوق لم يكن يقدم كل ما تتطلبه الحكومة المصرية من الأموال اللازمة للاصلاح. وقيل إن لورد كرومر لما أذن بتأسيس البنك الأهلي وأيده تأييداً معروفاً كان يؤمل أن يقوم يوماً بمقام صندوق الدين. وما نحن نرى هذا الأمل يوشك أن يتحقق في الواقع.

ولما تم الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤^(١) بين فرنسا وانكلترا كان أول ما فكر فيه اللورد كرومر حل عرى صندوق الدين فرضيت فرنسا بالمشروط التي عرضها عليها. ثم وافقت الدول الأخر التي لها أعضاء في ذلك الصندوق، ولا تأتي سنة ١٩١٣ حتى يصبح صندوق الدين أولاً بعد عين يتحدث عنه المصريون كما يتحدثون الآن عن المراقبة الثنائية ومؤتمر لندرة وما شاكلهما. ولقد بات لورد كرومر في راحة عظيمة من الوجهة المالية بفضل ذلك الاتفاق، فلم يعد يرى

(١) اتفاق عقد بين فرنسا وانكلترا بأن تطلق كل منهما يد صاحبتها، تلك في شمال افريقية وهذه في مصر

فرنسا تماماً كسبه كما عا كست في مسألة تحويل الدين ، ولا تشاكسه كما فعلت مع روسيا حين أخذ نصف مليون جنيه من صندوق الدين لحملة السودان ، ثم اضطر إلى رده بحكم من المحكمة المختلطة . ولا يشك أحد في أن لورد كرومر فاز فوزاً مالياً عظيماً بإدخال ما أراده من المواد المتعلقة بالمالية المصرية في ذلك الاتفاق . كما فاز مع حكومته فوزاً سياسياً بحمل فرنسا على التعهد لهم فيه « بأنها لا تقيم أقل عقبة في سبيل انكسار بمصر سواء كان بطلب تعيين موعد لاجلاء أو غيره »

وكان من سياسته المالية أيضاً - وهو أمرٌ يوجب الشكر الجزيل - ان يرفع أثقال الربا الفاحش عن عواتق الفلاحين فأنشأ البنك الزراعي بعد انشاء البنك الاهلي ونصح للحكومة المصرية وللبنك الاهلي بأن يساعدها حتى يقدم للفلاحين مبالغ صغيرة تسهل عليهم سبيل المعاش ، فأنشئ هذا البنك وجعل من مواد قانونه ان يسلف الفلاحين من عشرة جنيهات الى ٥٠٠ جنبه بفائدة ٩ في المئة ، غير ان بعضهم ينتقد على البنك المذكور بعض أمور ليس هنا محل ايرادها ، ومنعود اليها تحقيقاً للأمنية التي قصدها لورد كرومر من تعضيده وهي صون مصلحة الفلاح من شر المرابين .

وليس في وسع أحد ان ينكر النتيجة الباهرة التي وصلت اليها مصر بفضل تلك السياسة المالية ، وإذا كان بعضهم ينتقد تفاصيل صغيرة في بعض المصروفات ، فان كل قائل ينظر نظرة شاملة صادقة الى تلك السياسة ، يحكم بأن لورد كرومر من أعظم الاقتصاديين وأكبر الماليين فكم زادت مساحة الأراضي المزروعة منذ سنة ١٨٨٣ إلى اليوم ، وكم زادت قيمة الأرض الزراعية وأرض البناء بفضل سياسته . فليس بعجيب ان تعظم ثقة الأوربيين باللورد حتى صاروا يعدون كلته حجة . أما خلاصة آرائه في الحالة الحاضرة فهي ان هذا النجاح الاقتصادي العظيم قائم على قواعد راسخة ، غير انه يجدر بالمصريين وغيرهم أن لا يتهوروا في الاقبال على إحدى الشركات قبل أن يدققوا ويفحصوا ويستشيروا حتى يعلموا اذا كانت ثابتة القواعد قوية الأركان . فليعمل المصري بنصيحة ذلك المالي الراحل والشيخ الكبير ، فان تلك النصيحة ثمرة اختبار طويل وتجارب كثيرة .

أعماله السياسية

لا ينكر أحد على لورد كرومر انه سيامي محنك بعيد النظر رحب الصدر ، طويل الأناة ، كما يجب على كل سياسي . غير ان سياسته لا تخلو من أثر العسكرية التي صرف فيها شبابه . زيد انه شديد المراس في مطالبه ، عظيم الاصرار على أمره . يبقى سنوات عديدة يسعى الى

فاية واحدة ويتخذ من كل مسانحة حجة وبرهاناً لتأييد رأيه . ولا يدلنا على هذا كله مثل الحوادث التي جرت منذ سنة ١٨٨٤ الى اليوم، ولو آخذنا من تلك الحوادث مسألة الجلاء فقط مثلاً ، لكانت برهاناً كافياً على خطته . فالنظر كيف انه كان يجاهد جهاداً متواصلًا حتى يستتب في كل زمن وسيلة جديدة لإرساخ قدم دولته في وادي النيل فسير حملة السودان وكان في كل ساعة يستنجد الدماء الانكليزية التي أريقت في أم درمان على كل انكليزي يلفظ كلمة الجلاء . حتى استمال الى رأيه كبار الأحرار والمحافظين فأينده لورد روزبري كما أينده لورد سالسبري ، واستمال اليه لورد لانسدون ، كما استمال سير ادوار غراي ، وبات الأسطول البريطاني العظيم حارساً لما قرره في المسألة المصرية. فما رأينا حكومته ترد له طلباً أو تستنكر عليه سياسة ، ولو بلغت أقصى درجات الشدة : وانما نورد للقارئ هنا مثلاً واحداً لتلك الثقة العظمى بسياسته .

لما وقع الخلاف على تعيين سعادة نخري باشا خلفاً لمصطفى باشا فهمي سنة ١٨٩٣ ذهب لورد كرومر الى طابدين واعترض اعتراضاً شديداً على تعيين نخري باشا وأظهر لسمو الخديو أن اصراره على رأيه يجعل الأمر خطراً ، وأبرز له تلغرافاً من اللورد روزبري ناظر الخارجية يؤيد قوله ^(١) .

فان معتمداً سياسياً يجد من حكومته مثل هذا التعضيد في مثل هذا الحادث يستشعر نفسه من نفسه حزماً وان يكن بلا حزم . فكيف برجل عسكري مثل لورد كرومر . واذا أراد المطالع برهاناً آخر على تقديس حكومته لسكل رأي من آراء لورد كرومر في المسائل المصرية فليذكر حادثة فاشوده ^(٢) التي كادت تضرم نار الحرب بين انكلترا وفرنسا، وما تلك الحادثة وطرد كولونل مرشان ورجاله إلا تأييداً لسياسة لورد كرومر، وما الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وانكلترا بعد تلك الحادثة على مناطق السودان إلا بناءً على رأي لورد كرومر أيضاً فكان تمهيداً لاتفاق أكبر وخطوة أوسع في سبيل التقرب بعد ذلك التباعد بين الدولتين .

(١) استغل الخديو عباس وزارة مصطفى باشا فهمي في يناير سنة ١٨٩٣ وعين نخري باشا رئيساً للوزارة وأراد بذلك ان يحقق سلطته الشرعية . فبل ذلك من غير علم كرومر ، فامتنع كرومر عن الاعتراف بالوزارة الجديدة قبل أن يعرف رأي حكومته ، وانتهى الامر بأن عدل عن تعيين نخري باشا وعين رياض باشا رئيس وزارة .

(٢) وقعت حادثة فاشوده في اكتوبر سنة ١٨٩٨ ، اذ احتل الكولونل مارشان بفرقة من الجنود الفرنسية جزءاً قال الانجليز انه تابع للسودان وان لهم حقوق السيادة عليه . وقد بلغ النزاع بين بريطانيا وفرنسا مبلغاً كادت تقوم من ورائه حرب بين الدولتين .

ولما عقد ذلك الاتفاق، أي اتفاق سنة ١٩٠٤، استراح اللورد من المسألة المالية الدولية في هذا القطر، كما استراحت دولته من المعارضة السياسية، ثم التفت الى المسألة الدولية القانونية فكتب في العام الماضي فصلاً طويلاً عن وجوب تغيير الطريقة القديمة في الامتيازات الأجنبية، ثم نشر في هذا العام الفصل الضافي الذي اطلع عليه القراء، فكانت حملاته على طريقة الامتيازات متتابعة كحملاته على صندوق الدين قبل أن نال مراده .

وليس بنا من حاجة الى زيادة الاسهاب في هذا الباب فان كل خطبة لرجال الحكومة الانكليزية، وكل تقرير من تقارير لورد كرومر، وكل أثر من آثاره السياسية، يظهر حقيقة تلك السياسة التي اتبعها الشيخ الراحل . ولقد كان تقريره الأخير كوصية سياسية قبل رحيله عن هذا الوادي . ويعلم المطالع مما نشرناه أن اللورد لا ينصح لدولته في تلك الوصية بسطة الحماية على مصر، لأن بسطها يقضي بتغيير في الحالة السياسية مع أن انكثرتا تعهدت في الاتفاق الانكليزي الفرنسي بأنها لا تغير شيئاً من تلك الحالة كما تعهدت فرنسا بأن تطلق يد انكثرتا في القطر المصري .

نتيجة تلك السياسة

فأهي نتيجة تلك السياسة كلها ؟ نتيجتها اننا اذا نظرنا اليه بعين انكليزي فلا يسعنا سوى الثناء عليه . أما اذا نظرنا اليه بالعين التي يجب على المصري أن ينظر بها إلى مصلحة وطنه ، فلا يمكننا أن نصوغ له شيئاً من الثناء على عمله السياسي في مصر ، فإنه حرم مصر من حياة سياسية تطمح اليها كل أمة حية . وإذا كنا لا نستطيع سوى الاعتراف بأن اللورد وسع نطاق الحرية الشخصية ، فلا يمكننا أن ننكر أنه فعل العكس كل العكس مع موظفي الحكومة من المصريين فنزع حريتهم وسلطتهم ونفوذهم ، والقاهها في أيدي الموظفين الانكليز ، فبات كثير من أذكاء الشبان المصريين ينفرون من وظائف الحكومة . ولا أدل على هذا كله من شدة احتياج الحكومة الى موظفين ومستخدمين . ولا نظن أن قلة الكفاءة التي يذكرها اللورد في تقريره إلا نتيجة التعليم الناقص وسوء معاملة الموظفين والمستخدمين في الحكومة وربما كان يرى خذلان التعليم الصالح موافقاً لمصلحة بريطانيا العظمى لأن جناب اللورد ينظر في كل أمر إلى مصلحة دولته قبل كل شيء : سنة الوطني الغيور على وطنه . وأنه لمن هذا الطراز كلامه عن الوحدة الاسلامية وعن وجود التعصب لها في القطر المصري ، مع أن التعصب ليس له فيه أثر على الاطلاق ، ولكن هي المصلحة البريطانية تريد أن تناله هائلاً

مخيفاً . ومن هذا الطراز أيضاً كل عمل وكل اتفاق وكل خطوة وكل حركة لذلك السياسي الانكليزي العظيم .

وربما كان في وسع جناب اللورد أن يحصل لدولته على أكثر من الفوائد التي حصل عليها لو أنه صرف همته أيضاً في كسب ولاء المصريين الذين وصف نفسه بأنه صديقهم، بأن وضع للتعليم العام قواعد تجعله منتجاً مفيداً للامة، ودفع عن المعارف العمومية من كان يناهضها . واعتمد في الاصلاح على أكفاء المصريين ورضحهم بحرية العمل الى حسن الادارة ورغب عن نحو الجنسية المصرية الصميمة بما قال من انشاء جنسية دولية لمصر^(١) . لا شك انه بذلك كان يكسب لدولته صداقة الامة المصرية ولشخصه ثناء من المصريين يعادل ثناءهم عليه لعمله على نمو الحرية الشخصية واحترام الحق والمساواة بين طبقات الامة .

(١) انظر الى أي حد بلغت صداقة هذا اللورد .

- ٢ -

للسياسة الانكليزية عدة مزايا^(١) أو بالأولى عدة قوى متماسكة متضامنة يتألف من مجموعها تلك السياسة التي تحكم على خمس العالم . وإحدى تلك المزايا أنها لا تنقل سفيراً في عاصمة ولا حاكماً في مستعمرة ولا معتمداً في بلد، إلا إذا قضت الدواعي القاهرة كما حدث لورد كرومر معتمداً في القاهرة . فان هذا السياسي الكبير يقيم في العاصمة المصرية منذ بضعة وعشرين عاماً . ولولا طول إقامته لما تمكن من اظهار مقدراته . لأن النقل يقطع على السياسي سلسلة أفكاره التي يتمكن بها من الصعود إلى أعلى مراتب العلاء . فلورد كرومر كان كبيراً بثلاث : مقدراته الشخصية ، ومساعدة دولته له بكل قواها ، وسعة الوقت الذي انفسح له في مصر . وكل من يرسل نظرة شاملة إلى أعمال لورد كرومر منذ تعيينه معتمداً لدولته في هذا الوادي، يجد أن تلك المزية في السياسة الانكليزية ساعدته أعظم مساعدة لأنها مكنته من اتقان سلسلة أعماله حلقة حلقة ، والرجل كما يشهد له الخصوم قبل الاحجاب بعيد رمى النظر، طويل حبل الصبر، فكان كل عمل يأتيه تمهيداً لما يأتي بعده وتوطئة لسبيل الغرض الذي وضعه نصب عينيه . فما وافق على ترك السودان في أوائل عهد الاحتلال إلا ليبقى استئناف الحملة على تلك البلاد وسيلة جديدة بين يدي الاحتلال يتوصل بها لزيادة توطيد القدم الانكليزية عند الفرصة الموافقة ، فعرضت له تلك الفرصة سنة ١٨٩٥ حين علم بسير مارشان نحو السودان المصري . وما عقد بعد فاشوده الاتفاق السوداني مع فرنسا إلا ليزيل ما بقي من آثار الاستياء في نفوس الفرنسيين بعد تلك الحادثة ، ويمهد السبيل لاطلاق يد الاحتلال في المالية داخل القطر، واطلاق يد حكومته من الوجهة السياسية، فكان له ما أراد باتفاق سنة ١٩٠٤ مع فرنسا، ثم بموافقة سائر الدول صاحبات الشأن في صندوق الدين على ما يتعلق بمصر، فزعرع من تلك الساعة أساس هذا الصندوق . وما مدّ اللورد يمين المساعدة في ذلك الاتفاق اكتفاءً بمزاياه فقط، بل قال في نفسه نحن نغتنم ما يقدمه

(١) نشر بالعدد ٣٣ من الجريدة في ١٦ من ابريل سنة ١٩٠٧ تحت عنوان «خواطر وآراء : أو مزايا»

من مزايا السياسة الانكليزية »

من المزايا السياسية والمادية ، ثم نجهله تمهيداً جديداً لمشروع آخر عظيم ، هو تغير طريقة الامتيازات في مصر ، وحصر السلطة التشريعية في قبضة بريطانيا العظمى ، وما نيشل هذا المراد بالأمر المستحيل ما دام الاتفاق الودّي موجوداً بين لندرا وباريس .

وحسبنا ما تقدم دليلاً ساطعاً على تماسك مشروعات لورد كرومر منذ سنة ١٨٨٤ إلى اليوم ، وقس عليه سائر ما جرى . فلو لم يكن للسياسة الانكليزية تلك المزية لما وصل اللورد الى النتيجة التي ينظر اليها اليوم وهو باسم الثغر ، طلق الحيا ، لأنها جعلته عظيماً في نظر دولته ونظر العالم .

ولا ننكر ان الحكومة الانكليزية ، حرّة كانت أو محافظة ، يتفق لها أن تنقل سفيراً أو معتمداً أو حاكماً بعد تعيينه بزمان قصير ، ولكن هذا نادر عندها بقدر ما هو غالب عند بعض الدول الأخرى .

وبناءً على الخطة التقليدية التي تسير عليها انكترامع سفرائها ومعتمديها لا نرى وجهاً للاجتهاد في البحث والتنقيب عن سبب خفي في استقالة لورد كرومر ، فان جميع الدلائل التي ظهرت حتى الآن تدلنا على أن استقالة اللورد مسببة عن اعتلال صحته ، ولولا ذلك لما كان اللورد يقول لسير ادوارد غراي في التلغراف الذي أرسله إلى نظارة الخارجية « ويهمني كثيراً أن أعلم أن الأسباب التي حملتني على اتخاذ هذه الخطة إنما هي أسباب صحية لا غير » . وزد على هذا كله أن صحة اللورد بقيت مدة قبل استقالته وهي تنحرف بين حين وآخر كما ذكرت الجرائد المحلية . والمستفاد من أقوال الطبيبين الذين فحصوا اللورد ان شفاؤه مأمول بعد راحة طويلة لأن كل ما يشكو منه ضعف شديد في الأعصاب فلا بد إذاً أن نسمع للورد صوتاً في مجلس الأعيان الانكليزي بعد أن يتم له الشفاء . وسيبقى محترم السكامة عند قومه في جميع المسائل المصرية على وجهٍ أخص . ولا نظن أن رجلاً صرف معظم حياته في عمل كبير يستطيع أن ينساه أو يحجم عن الاهتمام بكل ما يتعلق به ويرجع إليه .

- ٣ -

استقال لورد كرومر^(١) مصرحاً لئلا هو وحكومة الانكايز بأن أسباب استقالته صحية صرفة ، وعلقت الجرائد على نبأ استقالته بما للرجل وما عليه ، ولكنها أبت إلا المناقشة في هذه الاستقالة حتى قال بعضهم أن سببها خلاف قام بينه وبين الوزارة على خطته السياسية في مصر . ولكن الذين يدعون هذا السبب لا يقولون بأن الوزارة الانكليزية قررت مبدئاً جديداً للاحتلال غير مبدئه القديم في انه مرجع كل الأمور . ولا يقولون بأن الوزارة الانكليزية كلفت العميد الجديد أن يترك مصر لسمو الأمير يتصرف فيها بما يشاء .

وما دام أنه لم يكن من ذلك شيء ، فالانكليز بالأمس هم الانكليز اليوم . وهم الانكليز غداً — منهم ترجى المنفعة ، واليهم ترجع الأمور ، فلا يسكن أمر هذه الحركة التي لا أصل لها ، إلا وترى أصحاب الحاجات يؤمون قصر الدبارة والجرائد تنشر الكتب المفتوحة والمقالات الضافية تبسط فيها مطالب الأمة لعميد الاحتلال — ولا يكون وراء كل هذا إلا مصداق ما قلنا يوم الاستقالة « انكليزي يخلف انكليزيا » غير أن المتتبع لهذه الحركة الباطلة والشعب المستمر يكاد يقع في وهمه أن وراء الأكمة ما وراءها من تبدل الأحوال واحياء الآمال وبوارق الاستقلال . لأن الجرائد الملقبة بالوطنية على اختلاف نزعتها أخذت تأمر الناس أن لا يعترفوا للورد كرومر بحسنة مطلقاً فلا يزورونه كما كانوا ولا يودعونه كما يجب على المقيم للمساقر ، وان يحتموا على أفواههم بخاتم الخوف من التغيير والتشهير ، فلا ينطقوا إلا بما يرضي تلك الجرائد من ألفاظ معاداة الورد المسافر وقومه المقيمين . وبالجملة فانه يفهم من قولها إننا قطعنا العلاقات بيننا وبين الانكايز .

لم يكن شيء من ذلك كله ولم تتغير الحال عن أصلها . وانا تلقاء ذلك لا تخلو سياستنا مع الانكليز من أحد وصفين : إما سياسة معاندة وعداء ، أو سياسة مسالمة لا استسلام . وقد علم العقلاء وجرؤوا سياسة المعاندة مع بضع عشرة سنة قد جرت بنا من الوجهة الادارية والسياسية إلى هذه الحال التي نألم لها جميعاً كل الألم ، والتي لم يبق معها لنا من ادارة بلادنا إلا محض تنفيذ أوامر الاحتلال في كبير المسائل وصغيرها . ولا شك في أن هذه السياسة سياسة المعاندة عقيمة . إذ كيف يقبل المعاند من المعاند حساباً على أعماله . بل كيف يرجو العدو من العدو إصلاحاً لحاله . أما والله إنا على هذا المذهب لا يمكننا أن نتقدم في مدارج الرقي الادبي والسياسي شبراً مادام الحال على ما نرى من التقاطع وسوء التفاهم من الجانبين .

(١) نشر بالعدد ٤٤ من الجريدة في ٣٠ ابريل ١٩٠٧ بعنوان « المسألة لا المعاندة : وداع لورد كرومر »

فلم يبق إلا سيامة المسألة والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة، وأول مظاهرها المجاملة في المعاملة، ومن هذا النوع يكون اهتمام العقلاء بالاحتفال بوداع لورد كرومر.

رحمكم يا أرباب الأرقام لا تفرّروا بهذه الأمة التعميسة، ولا تكونوا للزمان عوناً عليها، واخلصوا لها النصيح، وذروها في هذه الفترة هادئة، تتكوّن قوتها من الباقيات لامن الكلمات الطامحات، واعطوا العقول حقها من حرية التفكير، والألسن قسطها من حرية القول، والنقوس أمرها من الجرأة، وبيّنوا لها الفرق بين مواطن الانتقام ومواطن التكريم. وبين انتقاص الأشخاص وانتقاد الأعمال، ولا تكن الأرقام في أيديكم كالمعاول يهدم بها بناء الأخلاق، أو كالجلب يسترواها ضياء الحق، أو السهام تهلّل بها أعراض الأشخاص. وإلاّ فما بال بعض الجرائد أخذت تشهر ببعض الكبراء الذين انضموا إلى لجنة الاحتفال وتغصم كل يوم بضروب من أمثاظ السخرية غير اللائقة، حتى ذكر بعضها بالأمس أسماء غير الموظفين لتعرف بهم القراء، واعتذرت عن الموظفين بأنهم موظفون. وكأنها تريد بذلك أن ليس لمن يوجد في لجنة الاحتفال أو يحضر الاحتفال شيء من الإرادة أو الاستقلال الذاتي. ولا ينبغي ما في ذلك من تجريد فضلائنا وعظام موظفينا وكبرائنا من الاختيار الذاتي. فبمن يكون الرقي الذي تؤمله الأمم هي لم تحترم الحقيقة فيما أسندته إلى النظار من أنهم بطوفون ببيوت الأعيان فيحملونهم على الاشتراك في الاحتفال بوداع لورد كرومر والوزراء يكذبون ذلك علناً على صفحات الجرائد، ويتبرأون من أنهم يحملون أحداً على غير ما يريد.

أخبرنا أحد الوزراء وقد كنا سألناه عن هذا الخبر الذي أجمعت عليه « الجرائد المُتَحَابَّة » في يوم واحد فأكد لنا أن الخبر عار عن الصحة، وإنه لم يخاطب أحد من الناس في هذا الصدد. ثم قال وإني مع ذلك لأرى مانعاً في نظر المروءة وحسن الأخلاق ولا في عرف الوطنية يمنع الناظر من أن ينبه غيره إلى أداء واجب هو نفسه يقوم به. وفي الواقع فإن الأمر أشهر من أن يتستره، وأهون من أن يحتمل الدعوة إليه أي كتمان. وأبعد من أن تعتبر الصحف مطعناً على صدق وطنية القائمين به. قال أحد علماء الاجتماع: « ان الاعتراف بالجميل هو الاحساس بانتظار جميل آخر في المستقبل ». فإذا كانت الجرائد تريد من الناس أن لا يحتفلوا بوداع اللورد إظهاراً لعدم رضاهم عن الإدارة الانكليزية في عهده، وكان الناس في بلدنا على مذهب ذلك الاجتماع وأنهم لا يعملون العرف لثباته بل للاتجار به، أفليس من المصلحة أن يحتفلوا باللورد لينتظروا بذلك خيراً من خلفه الذي يجب أن يعتبر الاحتفال باللورد ومجاملته مجاملة له هو وجميع الانكليز في مصر أيضاً؟ استقال لورد كرومر فكنا أول من نشر الى الملأ الانتقاد المرّ على أعماله وأقواله التي

لا توافق مصلحتنا مقرونة بالاعتراف له بأعماله التي فيها صلاح لمصر . ولكن شخص لورد كرومر ومركزه والرابطة التي بين الأمة المصرية وأمته ، ووجوب صفاء العلاقات بين الأمتين لمصلحة الطرفين : كل ذلك يلوي بنا عن ان نكون من المعوقين في الاحتفال بوداعه واكرام ضيافته، وتشجيعه بما شاءت المحامسة القومية والكرامة العربية .

كان لورد كرومر المستبد بالسلطة ، الأمر النهائي الذي يطلب منه ايصال الخير كما يطلب منه دفع الشر، حتى اقدم كان بعضهم يستغيث به من المعية ليكشف عنه ظلامته . وكان بذلك مأموم الجناب من أصحاب الحاجات من الأمراء الى الفقراء ، فعلا نفوذه في البلد حتى لترى أصغر الفلاحين متى سرفت ماشيته أو أتلف زرعه قدم عريضة للورد كرومر . أصبح اللورد في مصر ضيقاً لا يملك من سلطانه شيئاً . لا اتصال له بالاحتلال الانكليزي والسلطة الانكليزية في مصر إلا كاتصال أحد الرجال المعول على رأيهم في بلاد الانكليز، ولا صلة بينه وبين الأمة المصرية إلا ما يبقى من الرابطة بين رجل أقام في أمة زمناً طويلاً فترك فيها أثراً سياسياً من الأعمال الصالحة وغير الصالحة يسجله التاريخ ، وأثراً أخلاقياً يذكر به شخصه بخير ممن لا قوا خيراً . وما الأمة المصرية تلقاء سفر هذا الرجل الكبير إلا إحدى اثنتين : سياسية تنظر في مآل الأمور من الوجهة السياسية ، أو غير سياسية تنظر في أخلاق الرجل من حيث هو — فان كانت الأولى وجب أن تعرف أن لليوم غداً ، وأن هذا الأمر له ما بعده . وأن قاعدة سياستها مع المحتلين هي المحامسة دون المعادة . وأن معادة القوي بوار ونقص من العلم بالمصلحة ، وأن المظاهرة ضد لورد كرومر ظهور بالعداء ونكران للجميل في وجه الأمة المحتلة في غير جدوى . وبذلك يكون الواجب عليها ان لا تمتعض من الاحتفال بوداع لورد كرومر وان تقوم له بالمجاملة السياسية الواجبة بين الأمتين المرتبطتين اقتداءً بسمو الأمير . وان كانت الثانية كان من الواجب عليها وهي تعترف للرجل بكرامته وزايمته وبشيء كثير صالح من أعماله ، ان لا تخشى في إظهار الاعتراف بالجميل لوم اللامعين . ولا ندرى كيف ان السير سكوت والسير غورمست عند مفارقتهما لمصر وكانا رؤوس لورد كرومر وسياستهما سياسته وعملهما منسوب اليه يعاملان بغير ما يعامل به لورد كرومر نفسه الذي قال فيه شاعرنا المجيد حافظ : «حتميق بتشجيع الحبين والمداء» .

فلتطلب الأمة نفسها فما كان كبراًؤها ووزراًؤها ليجمعوا إلا على ما يؤيد شهرتها بكرم الاخلاق وحسن المجاملة وينفق كل ما شاء في بناء ملجأ المصدرين الذي يظهر أن الرأي مسيخ على إنشائه تذكراً للورد كرومر . وليتأرجح كل حر تهديد الصحف ووعيدتها . ولا يسمع إلا ما يعلبه عليه وجدانه دون ما يكرهه عليه غيره ، فان الحرية في القول والعمل أغلى من أن تباع بالبقاء ، فكيف تباع بالترغيب في خير أو بالأمن من تهديد أو وعيد .

- ٤ -

ما حلت الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر أمس^(١) حتى ازدحم الناس بالشرفات والقهوات المجاورة للأبراج الخديوية واصطف البوليس أمام مدخلها وأخذت مركبات الكبراء والوجهاء تدرج بهم نحوها مثنى وثلاث. فلم تقترب الساعة السادسة حتى امتلأت ألواح الأبراج ومقاعدھا ومرسحھا الفسيح بكل ذي منصب ومقام من مصريين وأجانب. ولا يسمح المقام أن تذكر كل عظيم ووجيه من الذين حضروا فنكتفي بذكر أصحاب الدولة البرنس حسين باشا كامل عم الجناب العالي، والبرنس عباس حلیم باشا، والبرنس سعيد حلیم باشا، وعطوفتو مصطفى باشا فهني وسائر النظارة، وجميع أعضاء لجنة الاحتفال، وأصحاب السعادة زكي باشا، ووطن باشا، والسير ريجينالد باشا حاكم السودان العام، والجنرال بلوك قائد جيش الاحتلال، وأكثر قناصل الدول الجزائرية، وحضرات المستشارين ووكلاء النظارات، وسعادة محمود باشا سليمان، وكثير من أعضاء مجلس الشورى والأعيان، وعدد من السيدات الأوربيات. وما حلت الساعة السادسة تماماً حتى وصل جناب اللورد كرومر، والسير إلدن غورست وقرينتاها، وبعض السيدات الكرام، فدخلت اللادي كرومر، واللادي غورست ومن معهما من السيدات الى اللوج الخديوي، وأقبل جناب اللورد كرومر والسير إلدن غورست على صدر المرسح حيث أعدت الكراسي الجميلة المذهبة فعرفت الموسيقى إسلام ملك الانكليز، فوقف الحاضرون كلهم وهتموا برأياً ترحيبياً باللورد فرد لهم التحية باسم الثغر، طلق الحيا، ثم جلس على الكرسي الذي أعد له في صدر المرسح وجلس إلى يمينه صاحب العظوفة مصطفى باشا فهني، والكونت دي ساربون، وسعادة بطرس باشا غالي. وعلى مقربة دواتلو رياض باشا. وجلس الى شماله جناب السير إلدن غورست، وعلى مقربة أصحاب السعادة السردار، وصعد باشا زغالول، ونفري باشا، ومظلوم باشا. ووراءهم بقية أعضاء اللجنة وجملة من الوجهاء وأعضاء مجلس الشورى والأعيان والأدباء. ولما استقر المقام بذاك الجمهور الخطير وقف جناب الكونت دي ساربون مدير شركة قنال السويس وألقى الخطبة الآتية بالنيابة عن جميع الزلاء الأوربيين في القطار:

يا جناب اللورد - إن اللجنة التي تألفت في اليوم التالي ليوم النبأ المتعلق بقرب

(١) نشر بالعدد ٤٨ من الجريدة في ٥ من مايو ١٩٠٧ بعنوان « حفلة توديع اللورد كرومر »

صفركم تمثل جميع الذين يرتبطون برابطة الأسف البالغ والاعتراف بالجميل من غير تمييز بين الملل والأجناس ، ويريدون أن يوضحوا لكم على رؤوس الملائم ما خاثرهم من الاستياء لأن أسباباً صحيحة تحملكم على قطع سلسلة من الأعمال تتصل أشد اتصال من نحو ثلاثين عاماً بالبحث عن ضروب النجاح من كل نوع وبإخراجها إلى حيز التنفيذ كما يشهد لكم اليوم نجاح القطر المصري .

إن صاحب العطفة مصطفى باشا فهمي سيخطب جنابكم عما قليل باسم المصريين وموظفي الحكومة المصرية . أما أنا فعلياً أن أفصح لكم باسم اللجنة (التي أسدي إليها الشكر من صميم القلب لأنها خوّلتني هذا الشرف) عن عواطف الذين يودون من لباب القواد أن يظهروا الأسف لفراركم ، والاعتراف بجميلكم ، وإن كانوا لا يرتبطون برابطة اللجنة المصرية والمصالح العمومية في هذا القطر .

وأنتم أيها السادة : لا تنتظرون مني أن أعدّد لكم هنا ما أداه اللورد كرومر لمصر من الخدمات التي لا تحصى منذ دعي للمساعدة في إدارتها كعضو في صندوق الدين إلى هذه الساعة التي ستركنا فيها محفوراً بالأعجاب والاحترام . وهذا الإعجاب المبروج باحترامنا لشخصه هو أدل ألف مرة من كل الكلمات التي يمكنني أن استعملها لأصف سلسلة أعماله التي أصبحت مما يدون في التاريخ . واني لا أخشى أن أخرج بتعداد تلك الأعمال المهمة من الحدود التي رسمت لي فإن الذين أتكلّم باسمهم أخذوا منهم كما أخذ الوطنيون ثوبهم من ضروب النجاح التي لا تحصى والتي جعلت وادي النيل من أكثر بلدان العالم تقدماً وسعادة . وربما كان أحسن البلدان ضيافةً ، فيحقق لهم إذاً بل يجب عليهم فيما بما يلزمهم من الاعتراف بالجميل أن يشاركوا الذين يعدّون ما قام به اللورد من الأعمال العجيبة في وحدة غايتها وفي ما صرفه فيها من الجهد العظيم الفعّال

على أني لا أريد أن أدخل الآن في تفصيل الأعمال المختلفة الأنواع التي يرجع الفضل فيها إلى ما قدّمه اللورد كرومر من النصائح الرشيدة التي مكنت الأجانب — كما نعلم جميعاً — من الائتراك الكبير في إسعاد البلاد تحت ظلال من الأمن والتسامح يصعب أن نرى لها مثيلاً في جهة أخرى من الكرة الأرضية . ولستكني أسألكم السماح بأن أشير إشارة فقط إلى نظام جديد متسع تركه جناب اللورد قبل إخراجه من حيز المشروع إلى حيز العمل . ولا ريب يا جناب اللورد إنك تتهج كلامي وتحمله على تحمل التراف — مع أن التراف لا يتعلّق على إخلاصي في الكلام — إذا كنت أقول لجنابك إن جميع الزلاء الأوربيين

يرجون كل الرجاء ان يتحقق مشروعك (١) لاسيما وانه ليس لي صفة تمكنني من مثل هذا القول . ولكن ما أشعر إنني مفوض فيه تمام التفويض هو ان أظهر لجنابك كم تأثرنا جميعنا بلا استثناء من الاهتمام الذي أظهرته عند إعداد ذلك المشروع باستطلاع آراء العدد العظيم منا، وكم أشعرتم الأوروبيين بأنكم تريدون أن اشتغلوا معهم في زيادة تحسين حالتهم من الوجهتين الأوروبية والمادية .

مهلا لا تخافوا أيها السادة أن أسهب في هذا الموضوع الذي يدخل، سواء أردنا أو لم نرد في السياسة العالية . ولم يذهب عني أننا لا نقيم يا جناب اللورد هذه المظاهرة التي قصد الاجتماع لها كل الطبقات والطوائف ساعة رحيلك عن الأرض المصرية الجميلة التي تجود على الانسان بأمن كتوزعها — إلا ننظر لك ان عرفان الجميل المقرون بالادراك وشرف النفس ينمو في مصر تحت شمسها الوهابة للخيرات، كما تنمو في أرضها أنواع المحاصيل : فنحن إذا تقدم لجنابك في هذا الآن الذي يتنازعنا فيها عاملا المسرة والحزن، أجهل ثمرة يمكنها أن تشرح صدرك .

وبعد فلتسمح لي يا جناب اللورد أن أقرن باسمك في اظهار أسفنا وانعطافنا واحترامنا اسم تلك التي ساعدت مساعدة كبيرة النفع بلطفها وشفقتها التي لا تعادها إلا ما انصفت أنت به من الصفات الحازمة التي رفعت شأن مهمتك في هذا القطر . فان اسم اللادي كرومر سيبقى في ذاكرتنا صورة حية لطيبة النفس ومتمنلها على الدوام منعطفة انعطافا لطيفا الى مؤاساة البؤساء وتخفيف الآلام عن نفوسهم . ونحن ندعو لها كما ندعو لجنابك من صميم الأفضة المتحدة بأن تعود اليك الصحة والعافية وإذا أحييت دعواتنا فانك تتمتع بأجمل مكافأة يمكن المرء أن يتمتع بها في الدنيا وهي أن تنظر وأنت في اعزالك الهنيء الى جني ثمار البذور التي زرعتها في وادي النيل .

أيها السادة : لقد انتهيت من الكلام لكن اللورد كرومر يسمح لي ولا شك بان أضيف كلمتين فقط الى ما قلته ، وان تعرضت بقولها للإخلال قليلا بالنظام الذي رسم لي افاني تكلمت باسم لجنة الشرف العامة التي أشرت الى تأليفها ولكن يلوح لي اني لا أقوم بكل مهمتي اذا كنت لا أرفع الى جنابك اكرام لجنة أخرى شرقتني بانتخابي رئيسا لها وهي تتألف من أعيان الأوروبيين في القاهرة فقط ولا تشمل وظائف رسمية ولم تشأ الظهور منذ

(١) مشروع تعديل الامتيازات الاجنبية وكان كرومر يحاول أن يؤلف مجلس تشريع دولي يتخلص من الامتيازات ويتخلص من شخصية التشرييع المصري والانتقاء المصري ، ومن تمت بعد يده الى المناهجين فياض عليهما بيد بريطانيا الجديدة ، فاعظم حبه لعمرو والمصريين وما أسام نوايا اللورد الكبير .

تنظيم المظاهرة الحاضرة لأنها أعم وأوفى بالفرض . بيد اني لا أريد أن ألقى باسم تلك اللجنة خطبة خصوصية لأنها تكون عبارة عن ترديد ما قلته الآن ، وإنما أقول لجنابك كلمتين وأمل أن تبقىا في ذاكرتك « وهما الأصف وعرقان الجميل » وإذا كنت قد تجاوزت حد وظيفتي كخطيب رسمي فأشرت الى عمل تلك اللجنة الخاص فاذك إلا لأنه كان في عداد واجبات الشكر التي كلفت بتقديمها لجنابكم .

أما الكلمة الثانية فتتعلق بشخصي وهي انه يستحيل علي أن أعود الى الجلوس بعدما تكلمت باسم الذين فوضوا الي الافصاح عن عواطفهم بدون أن أظهر السرور الأسمى بجعل هذا الشرف لرجل فرنسوي . ويلوح لي أنني أكون ناكر الجميل اذا كنت لا أعرب جهاراً عن الشكر لزملائي أعضاء اللجنتين على اختياري مندوباً لمخاطبة رجل سياسي يعد في المرتبة الأولى بين الذين ساعدوا مساعدة فعالة في إبرام ما اتفقوا على تسميته « بالاتفاق الودادي »^(١) ثم وقف جناب اللورد بين أصوات الهتاف وألقى خطبة وحيزة بالفرنسوية هذا تعريبها نقلاً عن المقلم الذي صدر أمس مساء :

جناب الكونت وحضرات السادة الكرام : لست آسف في هذه الساعة من شيء سوى قصور معرفتي باللغة الفرنسية البديعة عن التعبير اللائق عن كل ما أشعر به في قايي . فأرجو يا جناب الكونت أن تعمدوا أني أشكركم خالص الشكر بالأصالة عن نفسي والنيابة عن اللادي كرومر ، على ما فهمت به الآن من الكلام المتناهي في اللطف وحسن الانعفاف ، وماذا أقول أيها السادة في مقابلتكم لخطبة الكونت دوسريون وما فيها من فرط المدح . إنني أشعر كن كشف له سرٌ عظيم ، إذ لم أكن أعلم أن لي أصدقاء هذا عددهم وهذا مقدار حادهم وكرم أخلاقهم . والذي يؤثر في خصوصاً أيها السادة ان هذه الحفلة جامعة لاناس من أمم عديدة فهي بهذا الاعتبار حفلة مختلطة أو دولية (في اصطلاح كتاب العربية) فأستميحكم في استنتاج هذه النتيجة مما رأيته منكم فيها وهي اني رغماً عن الصعوبات الكثيرة التي لا تفارق مركزاً مثل المركز الذي قضيت فيه ٢٤ سنة لم أكن في اعتبار جماعة من ذوي الرأي الصائب مثلكم بالرجل الرديء دولياً . والواقع اني كنت أقول في نفسي دائماً إن أول واجب علي هو فعل كل ما يطلب فعله مني للدفاع عن مصالح بلادتي ومصالح مصر . وإنما وضعت بريطانيا العظمى ومصر في كفة واحدة لأنني آبي أن أعتبر كلا منهما على حدة ، إذ

(١) ياعد اتفاقية سنة ١٩٠١ بين فرنسا وانجلترا ، وهي اتفاقية من الاتفاقيات الاستعمارية اللذيمة التي كُتبت فيها روح الاعتداء على شعوب شمال افريقية من حدود مصر الى المحيط الاطلسي ، ولا تزال هذه الشعوب ترضخ تحت نيرها الى الان .

كل من يدرك حقيقة مصالحهما بعدهما مصالح واحدة^(١).
 على اني علاوة على كوني انكليزياً - بل انكليزياً مصرياً - لم أنس قط اني
 أوربي أيضاً . وان رغد عيش الجاليات الأوربية العديدة المهمة النازلة في هذا القطر يعد
 مصلحة مصرية وبالتالي مصلحة بريطانية من الطبقة الأولى . وأنا أغادر مصر مقتنعاً بصحة
 هذه القضية كل الاقتناع ، واذا سنحت فرصة ، أو اقتضت ضرورة ، فليست أتغاضى عن
 الدفاع عنها .

هذا وأعيد لكم أيها السادة شكري الصادر من صميم فؤادي راجياً أن تسبلوا ذيل
 المذكرة على هذه العبارات المختصرة ، وسأشرف بعد قليل بمخاطبتكم باللغة الانكليزية .

خطبة مصطفى باشا فهمي

يا جناب اللورد :

بلسان الحكومة وبلسان السواد الأعظم من الأمة المصرية أبدي لجنابكم شعائر الأسف
 الأكيد على مفارقتكم هذه الديار ، أسف تزايد شدته على الخصوص لعلمنا أن الباعث الذي
 أوجب هذا الرحيل هو اعتلال صحتكم التي ضحيتموها باحتمال المشاق ومواصلة الأتعاب
 في سبيل القيام بما فرضه عليكم حبكم لهذه البلاد وتفانيكم في المساعدة على توطيد قواعد
 الثروة فيها بلا ملل ولا انقطاع عن العمل ، ولم تنس معمر أن حسن الحال الذي وصلت اليه
 والذي استوجب الإعجاب العام ، هو نتيجة ارشاداتكم السديدة ومؤازرتكم الأكيدة .
 نعم إن التاريخ خير كفيل بتسجيل ما أحرزته من أسباب التقدم والارتقاء لتقدير
 هذه المسائر قدرها من الإكبار والإجلال ، ولكن لي كلمة أقولها الآن بوجه الاجمال وهي
 ان الفلاح المصري قد جنى ثمرات هذا الاصلاح وأحس بنعمة هذا الاسعاد مادياً وأديباً
 بأكثر من كل انسان سواه .

هذا العمل المجيد سيخلد اسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما انه يدعوها في مستقبل
 الأيام الى الاعتراف لذكركم بهذا الجميل .

وفي هذا المقام أعرب أيضاً عن أسفنا لمفارقة اللادي كرومر التي استأثرت قلوب البائسين
 بخنائها واحسانها ، وخففت مصابهم بحسن مؤاصاتها فاستجقت بهذا الصنيع شكر انخاص والعالم

(١) ليس هذا القول الذي كمن في سياسة لورد كرومر من سنة ١٨٨٤ الى سنة ١٩٠٧ ببر أبيي ،
 تبين عن السياسة البريطانية التي اتبعت أزاء مصر من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٩١٦ وتجلت في كل الظروف
 والاحوال ، ظهرت في تقرير لورد ملر وفي جميع المحادثات التي دارت بين حكومات مصر وبريطانيا وفي
 معاهدة ١٩٣٦ ، وهي بنفسها التي تجول الآن وتصل في مفاوضات ١٩٤٦ ، ومحورها مركز الدفاع
 المشترك الذي يمن عليه الانجليز بالتواجد ؟

انكم يا جناب اللورد قد أخلصتم لمصر الود وجعلتم أجمل سني حياتكم وفقاً على خدمتها فصرنا على يقين تام بأنكم ستوالونا بعنايتكم على الدوام ، بما لنا على ذلك من الشواهد العديدة .

ولا غرو إذا اغتنمنا هذه الفرصة لتعرب لكم فيها عن شهدة نعلقنا بكم ولنقول إننا لا نزال نعتبركم كواحد منا .

الخطبة الإنكليزية

وهذا نصها نقلاً عن جريدة المقطم مع تغيير قليل في بعض المواضع

حضرات اصحاب السعادة والسادة الكرام — (الديباجة)

أرجو أن تقابلوا أقواني بالحلم والاعضاء فان خطابي هذا يكلمني جهداً عظيماً جسدياً وأدبياً . أما جسدياً فلأنه يلزمي أن أجمع قوتي كلها لأخطب فيكم ، وأما أدبياً فلأن اللطف الذي غمرني به الناس على اختلاف طبقاتهم في الأسبوع الذي فات ، قد غلبني وحلني جميلاً كثيراً ، ولأنني أشعر بألم الحزن الشديد في نفسي على فراق هذه البلاد التي لي فيها أصدقاء كثيرون وبها تقترن كل الحوادث التي حدثت لي في خدمتي العمومية وكذلك الأفراس والأتراح التي أصابني في حياتي المنزلية ومعيشتي العائلية مدة جيل تقريباً .

إني لا أفارق هذا القطار أيها السادة لأسباب سياسية وإنما أفارقه لأن يد الدهر ابتدأت تنقل عليّ ولأنني بعد ما قضيت في الخدمة العمومية نحو نصف قرن كنت في أكثره أكدر كدّاً وأعدو عدواً يحق لي الآن ان أنال نفسي من الراحة ، ولأنني أشعر ايضاً ان المهام والمصالح العظيمة التي يطلب من وكيل الدولة البريطانية السهر عليها في هذا القطر يكون السهر عليها الآن أوفى وأتم اذا عين لها من هو أصغر سنّاً وفي ابلان قوته ونشاطه عقلاً وجسداً أرى قبل التكلم في أمور أخرى أن أقول كلاماً قليلاً عن الاشارات اللطيفة والعبارات الرقيقة التي فاه بها جناب الكونت دوسريون وعطوفة رئيس النظار عن السيدة التي هي معيشتي في حياتي . فقد وقعت أقوالها وقماً شديداً في نفسي ولا شك انها وقعت كذلك في نفسها ايضاً . وهذا موضوع لو أطلقت لفتني العنان فيه لعدوت في ميدان الفصاحة شوطاً بعيداً ، ولكنني أملك عواظني لأسباب ظاهرة وأكتفي بقولي إنني لما كنت أصغى الى الخطبتين اللتين سمعتهما كنت أتمنى أن أكون مكان الخطيبين الكريهين ، وأطري اللادي كرومر عوضاً عن ان أرد على الثناء والاطراء ، وربما جاز لي في هذا المقام أن أقول انه كان من أقرب الأمور الى قلب اللادي الاشتراك مع غيرها من السيدات الحسانات في تقليل

الوفيات من الأطفال وتخفيف فتك الآفات بهم فتسكاً ذريعاً، فعسى أن هذا العمل الذي ابتدأ
ابتداءً حسناً لا يهمل في المستقبل

ولست أطيل الشرح أيها السادة في تاريخ ما مضى ولا أستطيع أن أشير إلى جميع الذين
أسعدني حظي بأن أكون شريكاً لهم في انشاء مصر الجديدة، وإنما أقول أنني كنت دائماً
أنال أكثر من نصيبي من مديح الناس على كل أمر حسن تم في هذه البلاد حديثاً، والحال
أنني لولا مؤازرة غيري من المصريين والأوربيين أبناء أمتي وأبناء الأمم الأخرى لما استطعت
أن أعمل شيئاً مما عملناه. وأقول أنه لم يعمل أحد منهم عملاً أنفع مما عمله المستر فندلي
الذي كان ينوب عني في ظروف وأحوال لا تخلو من صعوبة خصوصية مدة غيابي في
السنوات الأخيرة.

لا ريب عندي أن في الأربع والعشرين سنة التي قضيتها في وظيفتي هنا ارتكبت خطأ
كثيراً، ويحتمل أن يكون قد طاداني أناس أيضاً. ولكنني أوأمّل أن يكون وجودكم هنا اليوم
دليلاً على أنني ربيت لي أصدقاء كثيرين أيضاً. وقد أثر في حضور كثيرين من رصفائي
الأجانب الذين كانت العلاقات الشخصية بيني وبينهم على غاية الوداد كما كانت بيني وبين الذين
سبقوهم أيضاً.

قلت أنني لا أستطيع أن أتكلم عن جميع الذين كانوا شركائي في العمل لکن ذکر واحد
أو اثنين من أكارهم يحظر الآن في بالي وتتردد صورتها بجلاء وقوة أمام ذهني حتى لا يسعني
إلا أن أذكر اسميهما في هذا المقام. فأقول كلمة أو كلمتين عن شخص أرى أن الناس لم يعطوه
حقه ولا أنصفوه. وأريد به المغفور له سمو الخديوي توفيق باشا، على أنني لا أقصد أن أسرد
ألفاظ المدح الفارغ، أو أورد الأقوال والعبارات المصطلح عليها بلا نظر إلى صحة معانيها،
بل أنني أعني ما أقول، فتوفيق باشا كان يعرف بلاده ويعرف أهل بلاده أيضاً حق المعرفة
وكان شبه حلقة الاتصال بين المصلحين والشعب المصري يلطف من شدة غيرة الأولين
أحياناً ويبدل نفوذه مع الآخرين لثني خوفهم من الإصلاح الذي كان حينئذ يفوق خوف
المحافظين المتطرفين. فالتاريخ يكون ظالماً لا عادلاً إن لم يجعل لتوفيق باشا مقاماً ذا شأن
بين الغابرين من الملوك والأمراء الشرقيين، وهو لم يكن يشترك بنفسه كثيراً في إصلاح مصر
وتجديدها، ولكنه كان لحكمة وحسن فطنة ينفذ ويؤيد الساعين في تجديدها وإصلاحها.
وهناك شخص آخر من عطاء الزمن الماضي يحظر الآن على بالي وتتردد صورته في هذا المقام
أمام ذهني، فالذين يعرفون منكم أيها السادة تاريخ العهد الماضي في مصر والذين قرأوا تقرير
السنوي الحديث يعلمون أن ما اقترحه لتعديل نظام الامتيازات الأجنبية إنما هو بمثابة

تتمتع لعمل العظيم الذي يحكي أعمال أرباب السياسة والذي خطط المرحوم نوبار باشا خطته الأصلية. واذكر أيضاً اسم رجل آخر من أرباب السياسة وأنا مسرور بمشاهدته الآن بيننا. ألا إنه صديقي القديم المؤتمن دولة رياض باشا (تصفيق شديد طويل وهنا أحنى دولة رياض باشا رأسه علامة الامتنان).

إننا أيها السادة في زمان لا يحتاج فيه الشاب المصري الذي يتظاهر بمظهر المصلحين الى شجاعة تذكر . ولكن ما هو كائن الآن لم يكن كذلك طول الزمان ، بل كان لاسماعيل باشا رحمه الله طرق عنيفة في معاملة الدين لا يطأطئون الرؤوس أمامه ولا يعنون لهيبته (ضحك) . ومع ذلك وقف رياض باشا منذ ٣٠ سنة واعترض بكل جرأة على سوء الادارة وأقام الحججة على فساد الاحكام الذي كان متغلماً على مصر في تلك الأيام ، وعلق الجرس بعنق الهر ، فأعجبت بشجاعته هذه حينئذ . وكثيراً ما وقع بيني وبين صديقي وورصي القديم خلاف بعد ذلك ولكنني لم أكف قط عن النظر اليه بعين الاعتبار ، بل بعين المحبة التي تستحقها صفاته العبقريّة .

وماذا أقول عن صديقي العزيز عليّ السامي المقام في عيني عطوفة مصطفى باشا فهمي (تصفيق حاد وطويل جداً) ، فقد قضينا السنين الطوال ونحن كأنا على أعظم صداقة شخصية ، فأولاً أقول انه من أعظم الذين التقيت بهم في حياتي لطفاً ، وأكرمهم أخلاقاً ، وأحسنهم مناقب (عتاف شديد وتصفيق حاد) امتاز بتام الاخلاص والاستقامة والحرية والصدق في كل عمل من أعمال حياته . وثانياً أقول انه خدم أهل بلاده أجل الخدم ولكن بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لا يعنيه ، وأنا أعلم أن هذه الأقوال القليلة لا توفي صفاته الجليلة بعض حقها ولكنه لا يزال لدي قول كثير والوقت يقضي عليّ أن أختصر في ما أقول .

ومما أوجب لي السرور العظيم أني طاشت ناظر الخارجية المصرية سمادة بطرس باشا غالي معاشرته طويلاً وكان يؤدي أعظم منفعة وأجل خدمة بما أوتي من نأب البصيرة وسعة الخيلة العقلية في حل المشكلات التي تنجم عن حالة البلاد السياسية الخصوصية .

وأذكر أخيراً أيها السادة اسم رجل لم أشتهل معه إلا من عهد قريب لكن معاشرتي القصيرة له قد علمتني أن أحترمه احتراماً عظيماً ، وإن أصاب ظني أو لم يخطيء كثيراً فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد سمادة سعد باشا زغلول مستعمل عظيم المنفعة العمومية (تصفيق حاد طويل) لأنه حاز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده ، فهو صادق مستقيم كفء مقتدر شجاع في ما هو ممتنع به . وقد احتمل الطعن والذم من كثيرين دونه

فضلاً بمراحل من أبناء وطنه . فهذه صفات سامية فالواجب أن صاحبها يتقدم كثيراً .
أما شركائي في العمل من الأوربيين فغاية ما أقول عنهم إني أشكرهم من صميم قوايدي
على مساعدتهم التي لا تمن على شدةهم أزري في أحوال مخوفة بصاعب عظيمة . ولا يسع
المقام ذكرهم الآن كلهم بأسمائهم ، ولكن إن كان فيهم من يجب على أهل هذه البلاد أن
يعبدوا اسمه خصوصاً فلعله السر منسكريف ، والسر وليم جارستن وأعوانها ، الذين
أعطوا المصريين أعظم ما يحتاجون إليه وهو ماء الري ، وأضيف إلى اسميهما اسم رجل
فرنسوي شهير جليل وهو المسيو مسبرو الذي أكسبته أبحاثه العلمية في تاريخ مصر القديم
ما هو حقيق به من الصيت الطائر في الآفاق .

أخيراً أيها السادة أقول انه لم يكن يهمني ويلد لي من كل واجباتي أكثر من الواجبات
المختصة بالسودان . وسأعد اشتراكي مع السر رجينلد ونجت وأعوانه الفيورين الأكتفاء
في الإصلاح العظيم الجاري في تلك البلاد منذ أعوام ، مصدرراً استمد منه الفخر والسرور
كل أيام حياتي .

فبمساعدة الذين ذكرتهم ومساعدة كثيرين غيرهم أظن اننا عملنا عملاً غير ردي في ربع
قرن من الزمن وان يكن فيه ما فيه من القصور والتقصير ، ولكن يقول لي قوم كثيرون ان
المصريين بوجه الاحمال لا يعترفون كثيراً بالجميل وبالمنافع والقوائد التي لا شك في أنها
منحت لهم ، فأجيب على ذلك إني لا أعرف ما يشعر به المصريون من هذا القبيل ، ولكن
فياسوفاً فرنسويّاً قال قولاً ، أورد معناه وأست أجزم باقتباس مبناه ، قال : اذا قامى شعب
آلام الظلم والضميم طويلاً ، لم يكمد يبق له طاقة على شكر الذين يخلصونه منها .

ولا ريب أن أهل مصر قاموا كثيراً في ماضي زمانهم ومهما كان شعور المصريين وكانت
حماساتهم ومهما برهن لي المبرهنون وأقاموا عليّ الحجة والدليل فاست بتاركهم يحجوني
ليخرجوني من الوهم الشريف الذي أنا فيه إن صحّ انه وهم لا حقيقة . وأعني بذلك انه
لا يمكن أن أصدق أن المصريين — أو أحسنهم على كل حال — ينكرون أن يد التمدن
الغربي التي كانت تستعملها انكثرا لعمل عملها في الخمس والعشرين سنة الماضية هي التي
انتشلتهم من بالوعة اليأس بعد ما ألقاهم دهرهم فيها . وهب أني افتتعت — وما أنا بمقتنع
مطلقاً — أن أبناء الجيل الحاضر لا يعترفون بهذه الحقيقة الجليلة فاني لا أزال أومل مع

ذلك أن نسلهم يعترف بها إذ المعتاد أن أولاد العميان يكونون من المبصرين^(١) أيها السادة : لما أتيت هذه الديار لأتقلد وظيفتي الحالية فيها وضعت نصب عيني غرضين وجعلت أصعى اليهما دوماً مدة أعوام طويلة أحدهما سياسي والآخر اداري . فالغرض السياسي الذي وضعته نصب عيني هو أن أكون من جملة المساعدين على إعادة ذلك الاتفاق الذي قضت الأحوال بمسه بين فرنسا وانكلترا ولم تقض بذلك مقاصد حكامها وأهاليهما ولا مطامعهم . قال السياسي الطائر الصيت المسيو غمبستا الذي كانت ارادته المتسلطة على العقول مدة منصبه تؤثر في سير تاريخ مصر تأثيراً دائماً يوصي أهل بلاده : اياكم وان تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية . ومذهبي في السياسة الدولية الذي يشاركني عدد عظيم من

(١) نعم سيمترفون بأنكم قتلتم حركتنا الوطنية سنة ١٨٨٢ واعتديتم على حريتنا وألغيتم دستورنا وأفدتم التعليم وأذلتهم الموظفين المصريين واتخذتم من النظار آلات صم بصلفكم واستبدادكم ، وأنتميم المصالح الاوربية وقتلتم المصالح المصرية ، وستم البلاد سياسة صاحب الصيمة المجتمع يمتس دم الفلاح ليظن خاضعاً مستكيناً .

نعم جاء الجيل المبصر من أبناء العميان . جاء الجيل الذي يتبش قبور ماضيكم وبحاسبكم على أنكم ورثة عصر الممالك ، ولكن بأوضاع أخرى .

كتب غلادستون الى مدام « أولغا نوفيكوف » كتاباً بعد أيام من موقعة التل الكبير قال فيه :
« نحن وكل المملكة في سرور وابتهاج ، وآمل أن يتقبل الله القادر على كل شيء ، شكرنا على ما جئنا به من نعمة وفضل فيما أحس ، بل واعترف أنه عمل متصف بالامانة . أما أن ينظر بعض الروسيين الى انكلترا في سنة ١٨٨٢ بين الغيرة والحسد ، أو اننا من ناحيتنا انما نجاهد في سبيل العدل الاسمي والحضارة ، فالحكيم فيه متروك الى قليل من الزمن . ومن حقة أن نفتبط ونمضي مجبين بحبيبتنا وبحريتنا وأسرانها وقوادتنا ومنظراتنا . انه لم يمض سبع أسابيع منذ أن توجهنا الى ارسال ٣٥٠٠٠ رجل عبر مسافة لا تقل عن ٣٠٠٠ ميل ، وكان من فضل الله علينا أن وافانا بنتائج سريرة » .

« هذا ، كما تذكرين ، بمناسبة مجازفة عسكرية عبثت لمصلحة بورصة القنود ، ومعرفة ذبح فيها ٢٠٠٠٠ فلاح من فلاحي النيل نصف مسلحين » .

(انظر مذكرات الفرد إسكارون بلنت المجلد الثاني ص ٢٥٠ — ٢٥١) .

ويقول مستر بلنت أنه أسف كل الاسف لانه لم يطلع على كتاب غلادستون هذا حينما كان يؤلف كتابه « التاريخ السري لاحتلال مصر » ويوجب كيف ان رجلاً اشتهر بالفضل مثل غلادستون قد أتى بنفسه في غمرات هذه المذبحة وفي حرب هي من أشنع حروب الاعتداء .

ورحم الله مستر « بنيامين كد » الانكليزي ، وهو عالم لا سياسي ، اذ يقول في كتابه « علم القدرة »

ص ١٢١ الفصل الخامس :

« ان حضارة الغرب تكاد لا تكون شيئاً أرفع من وحشية منغمة » .

أهل بلادي فيه يمكن أن يعبر عنه بهذه العبارة : أياكم وإن تقطعوا جبل الاتفاق الفرنسي . فإن هذا الاتفاق الذي أشار اليه الكونت دو سريون بعبارة اللطيفة هبني على اشتراك الفريقين في المصلحة ، وعلى قرب الجوار وتشابه المنظمات السياسية واحترام كل فريق للآخر احتراماً فائقاً عن تلافيهما في ساحات الوغى كثيراً واقتتالها فيها شديداً وعلى كون خصائص كل منهما وصفاته مكملة لخصائص الآخر وصفاته . وزد على ذلك كله انه ليس في هذا الاتفاق تهديد لأحد وإنما هو صادر عن رغبة الفريقين في حفظ السلام في العالم . فإن كان في العالم أمتان تقضي عليهما الأحوال والظروف بأن تتصادقا وتتحابا فانما هما أمتا فرنسا وانكلترا ، فلا يخفى على أقل مبتدئ في السياسة انه ما دامت هذه الفرحة المصرية تنزّ فصدقة تينك الأمتين لا بد وإن تمس . ولذلك لما أتيت مصر سنة ١٨٨٣ عقدت نيتي على أن أسمى في صد هذه النقرة بقدر ما يمكنني في دائرة وظيفتي . وكان ذلك سعيًا شاقًا كسعي الطالع جبلاً حمالاً ثقلاً ، فإن الأمتين قضتا الأعوام وكل منهما تنظر الى الأخرى شراً وقد دارت بينهما المضاربة والملاكمة القاسية ، ولكنهما لم تتعد والحمد لله حد الكلام ، ونلت أنا نصيبي منها فقد ظلت زماناً والجرائد الفرنسية تذكر اسمي ممنوعاً بنعوت الدم إلا نادراً . وأظن أن أكثرها كان يلقبني بكرومر الوحش . وقد شبهتني مرة على ما أتذكر بأعظم آلهة الوثنيين حبسًا لشرب الدماء حيث لقبتني بمولوك^(١) ولكن مداعبات الجرائد هذه هي في المناقشات السياسية كالأفاويه والتراويل في الطعام فتكسبها حياة وتزيدها نكهة ورونقاً فلا يحسن بالإنسان أن يحفل بها كثيراً ، لاسيما وإن زمانها قد مضى لحسن الحظ وانقضى وتغيرت لهجة الجرائد الفرنسية حتى لقبتني مرة في هذه الأيام بهذا الشيخ الجليل . على أي أفرغت الجهد مدة أعوام كثيرة في المساعدة على عقد اتفاق بين الأمتين . وأقول الآن إن أسعد يوم من أيام خدمتي في مصر كان يوم ٦ أبريل سنة ١٩٠٤ الذي وقع فيه الاتفاق الفرنسي ، ولست أدعي أنني كنت من أشهر واضعي هذا الاتفاق ، بل أعترف أن الفضل في عقده كان لأرباب السياسة المتولين زمام الأمور الخارجية يومئذ في باريس ولندن . وربما جاز لي من غير أن أمسّ واجب الإكرام والاحترام ، أن أضيف اليهم ملكنا السامي النهي العظيم المواهب العقلية الذي نلت الفخر والامتياز بخدمته السنية^(٢) . ولكن يسوغ لي أن أقول إن الجهد

(١) Moloch or Moloch : ذكر في التوراة : الملوك الاول إس ١١ آية ٧ : حينئذ بنى سليمان سبعة لكروش الوثنيين على الجبل الذي تجاه أورشليم . ومولوك بسس بني عمومة أم . وانتشرت عبادته بين القبائل الكنعانية والسامية . وهو صورة من بيل "Baal" أو هو تشخيص أو تجسيم لمبدأ المذكورة في الطبيعة . وكانت عبادته تم بتقديم ضحايا بشرية . See : Century Encyclopaedia of Names .

(٢) الملك أدوارد السابع

المتراصل الذي بذله أولو الشأن في مصر مدة أعوام طويلة لاجتناب كل ما يمكن اجتنابه من المنازعات ، ولقمض كل الدماوى والشكاوى الصغيرة التي نتجت من احتلال بريطانيا العظمى لمصر — هذا كله مهد طريق الاتفاق ، وسهل الأمر على المتفاوضين فيه .

وأنتكلم الآن عن الغرض الاداري الذي وضعت له نصب عيني فأقول : اني سمعت في هذه الأيام لفظاً واحداً كثيراً عن أن حكومة مصر ، حكومة مستبدة ظالمة ، فلا يهمني أن أطيل في الرد على مثل هذا الكلام بالتطويل ، بل أقول اني أفرغت جهدي مدة خدمتي كلها بمصر في بث روح الحرية في نظام حكومة « بيروقراطية » ولسكني لم أدخر وسعاً في الاطلاع على حقيقة الرأي العام سواء كان أوروبياً أو محلياً ، وإعطاءه حقه من الاعتبار والاهتمام ، وحسن أن أترك لغيري الحكم في مقدار نجاحي من هذا القبيل .

ثم التفت الى أمر آخر وهو اني أسمع قوماً يقولون ان مصر ارتقت ارتقاءً مادياً عجبياً في الأعوام الأخيرة ولكن لم يعمل فيها شيء لترقية أهلها أدبياً وعقلياً . عجباً أيها السادة كيف يقال ان مصر لم ترتق أدبياً ؟ هل الحكم فيها اليوم لا كبراج وحده كما كان في الأيام الغابرة ؟ هل السخرة (العونة) باقية فيها ولم تطو الأيام عليها ؟ هل اعنة الرق لا تزال حالة عليها ولم تزل منها ؟ . أليس كل شخص فيها من الأمير الى العملوك الخفير سواء أمام القانون ؟ . ألم ينشط الناس فيها الى السعي والكسب ؟ . أليس أصغر الناس فيها يجنون اليوم ثمار سعيتهم ويتمتعون بما يحصونه بعرق جبينهم . أليس من الحقائق المقررة ان العدالة لا تشتري وتباع اليوم وان كل انسان حر — بل ربما ظن قوم انه حر أكثر مما يجب أن يكون — في الجاهرة بأرائه والتعبير عما في ضميره وان سلطان « البخشيش » قد نزل عن عرشه وعزل عن مقاماته العليا في الحكومة ولم يبق له أثر إلا في أخرياتهما وضواحيها . وان ماء النيل الذي يحيي الأراضي ويأتيها بالخصب يوزع على الأمير الخطير ، والتفاح الفقير ، بالقسط والمدل . وان المجرمين يمرضون ويعالجون الآن في مستشفيات مستكلمة العدد ووسائل الراحة . وان المجرمين والمجانين لا يعاملون الآن معاملة الوحوش الضارية ، حتى الحيوان الأعمى لم يفت الرفق به عنابة المصلحين . وان اشتراك الحكام والحكوميين في المصالح أصبح أمراً مقررأ عند الفريقين قولاً وفعلاً . وان كل عمل عمله الادارة وان كان خطأ — اذ العصمة لا تكون إلا لله وحده — تكون آثار حسن القصد بادية عليه ، ورغبة الحكومة في خير الأهالي ظاهرة فيه ، وان الأموال التي تؤخذ من جيوب الذين يدفعون الضرائب والتي قلت كثيراً عما كانت عليه تصرف الآن في الوجوه النافعة للبلاد بعد ما كان معظمها يصرف على بناء قصور لا منفعة لها ونحو ذلك من الأمور التي لم تكن اتهم السكان بوجوه من الوجوه ، فإن كانت هذه الأمور

كلها وكان غيرها مما يمكنني أن أذكر منه كثيراً لا تمد ترقية أدبية ، فالحق يقال اني لا أعلم بعد ذلك ما المراد من قولهم آداب وأدبيات (١) .

ولكن يقول قوم ان عقول المصريين وآدابهم لم ترتقى ، فأفكر هذا القول أيضاً انكاراً باننا . انظروا إلى تعليم البنات فهل يظن طافل انه يمكن لهذه البلاد أن تنشرب روح التمدن الحقيقي ما دام مقام المرأة غير متغير فيها ؟ إن كان أحد يظن ذلك فاني أخالفه في ظنه كل المخالفة ، ومع ذلك فإنه منذ بضع سنين — والعهد غير بعيد — لم يكن أحد يهتم بهذه المسألة غير صديقي سعادة يعقوب باشا أرتين ، وعزتو قاسم بك أمين وآخرين قليلين . وأما بقية الأهالي فلم يكونوا يباليون بذلك بل انهم كانوا ضدها ، فانظروا التغير الذي حصل الآن . لم يبق عند الحكومة المصرية مدارس تسع كل البنات اللواتي يروم والدوهن تعليمهن .

وانظروا أيضاً الى التعليم الابتدائي فان النظام الذي كان متبعاً قبل الاحتلال البريطاني لم يكن يصلح لشيء ثم تغير ذلك أيضاً تغيراً عظيماً لأن الكنائس تنشأ في جهة من جهات القطر بعناية كثيرين من أعيان البلاد المستنيرين . وقد ابتدأت حركة أخرى تستحق الذكر لتعليم الصنائع للاهلين . أما تعليم العلوم العالية وأعني به الحقوق والطب والهندسة وما شاكل فالتقدم فيها مستمر مطرد منذ أعوام .

نعم انه لو تيسر للحكومة المال الوافر منذ عشرين سنة . لكان قد تم أكثر مما قد تم الآن كثيراً ، ولكن عقدة القضية المصرية ان المال الذي كان للحكومة سبيل اليه لم يكن وافراً ، بل لم يكفد يكون كافياً مدة أعوام كثيرة لسد حاجاتها الضرورية .

على أني لا أنكر ان البلاد لا تزال مفتقرة إلى تقدم كثير أدبياً وعقلياً وأنا واثق ان المعارف ستتقدم وترتقى سريعاً على يد ناظر المعارف الحالي وحناب المستر دنلوب مستشاره لاسيما وأنه قد نزل بالأمس الى الميدان حليف كفاء عالي الشأن . فاني قرأت منذ برهة بسيرة حديثاً جرى لسمو الخديوي مع مكاتب إحدى الجرائد الفرنسية (٢) . وقد قال سموه فيه « إن الهمم الدولي بأمر الدين المصري قد مضى وانتهى »

وأقول في سياق الكلام إن هذا القول مطابق للواقع الآن ، ولكنني واثق انه لو كانت الحكومة تنفذ كل مشروع من مشروعات الإصلاح الغربية التي تكثر مسماتها في هذه

(١) لورد كروس هنا دنلوب وسداد التعليم وضياح كرامة الموظف المصري وفقدان الحرية والكبرياء والنسب ومقاومة مشروع الجامعة بمشروع الكنائس وبمساعدة الاجنبي على المعري ، ورعاية الاجانب ونبذ المصريين ، ونسب يوغوس نوبار ويغوب أرتين والمستشارين الانجليز الذين كانوا ملوكاً غير متوحين . نسبي كل هذا ونسب معه ان ما ذكر كانت قائمته الكبرى الاجانب .

(٢) حديث الخديوي عباس الثاني مع مكاتب الطان ، وقد نشرته في الباب الذي عنوانه « الخديوي » .

الأيام لكان الهمم الدولي عالية مصر لا يلبث أن يعود ويحيا في الحال ، ولكني لا أطيل الكلام في هذا القبيل .

ثم قال سموه « وقد كان لنا أن نبذل جهدنا وليس في خير الأهالي المادي فقط ، بل في سد حاجتهم العقلية والأدبية أيضاً . وأنا لا يرمي أصر أكثر مما يهمني هذا الأمر » فأرحب بأقوال سموه هذه من صميم فؤادي وأقول أن سموه خصوصاً يقدر أن يرقى شعبه كثيراً من الجهة الأدبية فهو يستطيع أن يبطل فضائح ديوان الأوقاف المفسدة لهذه البلاد أي افساد ، ويستطيع أن يظهر لأهل دينه أنه يمكن اصلاح المحاكم الشرعية من غير أن تهوى أركان الاسلام . ويستطيع أن يحبط أعمال المشيرين ذوي الأغراض الخصوصية وغير المسؤولين الذين يتجمعون حول كل معية شرقية ويكون نفوذهم مضر بالآداب العمومية . ويستطيع استخدام نفوذه العظيم لتشجيع المصلحين الحقيقيين الذين يريدون الخير لبلادهم من صميم أفئدتهم ، فاذا فعل سموه هذه الأمور كما أوام ، كسب الشكر والاحترام من كل طبقة من طبقات الأمة أخاف أن أكون قد أنعمتكم أيها السادة بطول الكلام ولكن كل ما قلته كان عن الماضي فاذا تكرمتم عليّ بالاصفاء فاني أقول شيئاً عن المستقبل .

ماهي حقائق الحالة المصرية الآن . أولها هي : أن الاحتلال البريطاني يدوم الى ما شاء الله . وقد قالت لنا حكومة جلالة الملك ذلك رسمياً . وثانيهما : هي أنه ما دام الاحتلال باقياً فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسؤولة عن الخطة التي تجري عليها الادارة المصرية لا تفصيلاً بل اجمالاً . ولا يكن عند أحد أقل ريب في هذه الحقيقة الثانية (١) . والنتيجة التي استنتجها من هاتين المقدمتين هي أن نظام الحكومة الحالي دائم رغمًا عما يعتريه من العيوب والشواذ الكثيرة التي لا يعترف بها أحد أكثر مني ، وأظن أنه ليس في الناس من هو أقدر على ضمان الدوام لهذا النظام من جناب السر إيدن غورست خفي المقتدر البارع (تصديق حاد) كما تعرفون مقدرة السر إيدن غورست ومزاياه فلا حاجة بي الى اطالة الكلام في شرح أوصافه الجليلة ، وإنما أقول اني سررت أعظم سرور بتعيينه في مكاني لأن الصداقة بيني وبينه عظيمة ، ولأن ثقتي به تامة ، ثم اني أرى من أقوال الجرائد الأوروبية والمحلية انها تشير على السر إيدن غورست باتباع ما تسميه « سياستي » .

فرايت أن أوضح ماذا كانت « سياستي » هذه ، ويكفي لايضاحها كلمات قليلة وهي ان سياستي كانت قول الحق ، وأنا عالم أن السر إيدن غورست يجري على هذه السياسة ، ولا ريب عندي أنه يجد في القيام بواجباته الشاقة من أبناء بلاده وغيرهم من التأييد الخالص النفعال

(١) هذا منقح ما سمعنا في السياسة الألمانية من الصلف والكبرياء والدمى النفسي وقدان البهيرة ، يقفون والنك المهرج دائر ويقدررون فتضحك الاقدار

ما كنت أنا أجده منهم دائماً ولا تنسوا أيها السادة أن مبدأ «الاتحاد قوة» يجب أن يتبع أتم اتباع في هذا القطر إذا أردنا أن نحصل على أتم النفع منه (١).

ليس من المحتمل أيها السادة انه يكون لي دخل عظيم في السياسة في المستقبل ، ولكني لا أكف عن الاهتمام بأمور مصر على قدر ما تسمح به قوتي وعافيتي ، وأبذل كل ما يمكنني بذله من تفودي في ترقية هذه البلاد على الخطة الموضوعه الآن لترقيتها ، ولا أمدح تغييراً فجائياً فيها ، ولا أهير بكل خروج عنيف عن المناهج الحالية الى منهاج جديد. وإذا اقتضى الأمر فاني سأطالب وألح خصوصاً بأن هذه الحركة الكاذبة المفتعلة لانشاء مجالس نيابية سريعاً لا تعامل إلا بقدر ما تستحق ، وان سألتموني أيها السادة عما تستحق قلت لكم انها لا تستحق شيئاً لأنها لا تعبر في الحقيقة عن رأي المنورين من سكان القطر المصري أوربيين كانوا أو مصريين بل انه متى زال كل ما يقال الآن من الهذيان والمبالغة كان الاختلاف في الرأي بيني وبين خصومي وخصوصاً الذين في بلاد الانكليز منهم اختلافاً في الدرجة لا في المبدأ ، فهم يريدون أن يعدوا عدواً سريعاً جداً ، وأنا أرى أن الخطب أحسن سير يوافق مصلحة البلاد . فان هذا السير هو الذي تقع معناه في الماضي ، وهو الذي أشير بدوامه ، فلا يبطيء حتى يصير مشياً ثقيلاً ، ولا يسرع حتى يصير عدواً زميلاً ، لاقتناعي انه اذا أسرع كثيراً خيف ان جواد مصر يكبو فيقع ويكسر ركبته (٢).

وأخبركم الآن أيها السادة لماذا أرى هذه الآراء وأذكرها الآن . لا أراها لأن من ورائها مزايا سياسية لوطني ولا لاني أعتقد أن جميع الأذكاء من الأوربيين والمصريين في هذه البلاد يشاركونني فيها . كلا ، بل لاني أوصل ان ما أقوله لخصركم الآن يترجم الى لغة أهل البلاد ويبلغ مسامع الملايين الذين لا يسمع لهم صوت . أولئك الفلاحين اللابسين الجلابيات الزرقاء الذين يتوقف تقدم البلاد في الثروة واليسر على تعبيرهم . فأنا — الذي يعد نفسه دائماً صديقهم الحقيقي — أحذرهم من أن يفتروا ويضلوا بأقوال الذين يدعون كذباً بأنهم ينوبون عنهم ، وينطقون بلسانهم ، وينقلون عنهم بلا إذن ولا توكيل منهم آراء لا يرونها ، بل لا يفهمونها ولا يدركونها ، ويطلبون أموراً سياسية لو أجيبوا اليها حالاً لعادت بالضرر على مصالح الناس هموماً ، وعلى مصالح أفقر أهالي القطر خصوصاً (٣) (اصموا اصموا) .

(١) يقصد بذلك اتحاد الانكليز والانيات على شفق أهل دنشواي وحلهم أمام أهليهم وفي قريتهم .

(٢) الانكليز هم الذين كسروا ركبته لكي لا يات من يدم . وسيجان الثورة ما أعنفهم وما أكذبها وما أسفها .

(٣) اصحاب الجلابيات الزرق الذين شتمهم لورد كروس في دنشواي . ان المصريين ان ينسوا على القرون ناردنشواي

ولو كنت أتحوّل عن الدفاع عن هذا النظام الذي دام نحو ربع قرن الآن الى انتقاده لكان أول ما انتقده فيه أن التقدم كان سريعاً جداً فيه عوضاً عن أن يقال انه كان بطيئاً جداً وأنه لمزيد سرعته لم يتيسر بعد لعامة الناس أن يقتبسوا ويألفوا الاصلاحات التي تمت فيه (١).

بقي لي نصيحة أخرى أحب أن أقولها قبل أن أجلس في مكاني وهي أن قولهم « الاتحاد قوة » لا يصدق على الذين هم في خدمة الحكومة فقط ، بل على جميع الذين همهم التمدن الحقيقي إلى هذه البلاد . فالواجب عليهم أن يتحدثوا معاً ، ولا أعني بذلك أن الانكليز والفرنسيين والالمان وسائر الأوربيين فقط يطرحون عنهم ما بينهم من المناظرة والمنافسة ويتحدون معاً في مصلحة واحدة ، بل أن جميع الذين يريدون أن تكون الحكومة حكومة عقل ، وأن يكون تقدم البلاد مستمر دائماً يتحدثون جميعهم معاً سواء كانوا مساهمين أو أوربيين أو أفريقيين أو أسيويين ويقاومون القوات المجاهدة في سبيل التأخر والتقهقر حقيقة سواء كان جهادها من جهل أو من عمد وقصد (٢).

وأشكركم أيها السادة في الختام على إصغائكم إلي بالصبر وطول الأناة هذه المدة التي قلت فيها كل ما أردت قوله .

ولا شك عندي أن الصعوبات لا تزال كثيرة في سبيل المصالح المصري وخصوصاً السر إلدن غورست ، ولكن آخر كلمة أقولها له وإسكم كلكم هي كلمة كان عبّاد الإلهة ايزيس في هذه البلاد كثيراً ما ينةشونها على قبورهم بلغة القوم الذين هم أصل التمدن الأوربي والذين استوطن أناس كثيرون من ذريتهم هذه البلاد نظيرها والذين أعد منهم أصدقاء كثيرين لي — وأعني بها لغة اليونان . ومعنى تلك اللفظة اليونانية « تشجعوا » .

فأودّعكم أيها السادة وأنا واثق ثقة تامة بمستقبل هذه البلاد التي كانت موطناً لي سنين هذا عددها ، والتي نأصلت جرائم التمدن الحقيقي فيها على ما أرجو حتى صار يعسر استئصالها . أودّعكم على السكّره مني واستودعكم الله .

ثم صعدت الموسيقى بالسلام الخديوي وكانت الساعة ٧ والدقيقة ١٠ مساء .

(١) سبحان القوة ما أسمجها وما أعظمها .

(٢) معنى هذا الكلام بل لغة كرومر: اتحدوا ايها الانكليز والفرنسيون والالمان وسائر الأوربيين واستكنبوا ايها المسلمين والافريقيين والاسيويين ، اتؤكلوا وتؤوتوا تحت أقدام سدنةكم ، إذ كيف يتحد مأكول وآكل ، وعبد وسأل حرية ، وخاص ومنسوب ، وحاكم مسند وحكوم ؟

- ٥ -

كان من الطبيعي أن لا يتسع قصر الدبارة في الأسبوعين الماضيين لغير توديع المعتمد القديم ، واستقبال المعتمد الجديد، فلذا كان من حسن التدبّر والحكمة أن لا ترسل بملاحظاتنا على تقرير اللورد كرومر عنها^(١) لأننا لا نريد بهذه الملاحظات التشهير وإنما نريد أن يعلم معتمد الدولة رأي الناس في هذا التقرير الذي اعتبر كأنه برنامج السياسة الانكليزية، فالיום وقد استقلّ جناب السير غورست في هذا القصر نقدم هذه الملاحظات آمليين ان تحل في نظره محل الاعتبار .

الجامعة الاسلامية

ليس من موضوعنا أن نبحث عن قيمة الشرقي على العموم من جهة الأخلاق الثابتة وآثار التطور المدني في تلك الأخلاق ولا من جهة كفاءته السياسية لتدبير شؤونه وحكم نفسه بنفسه ولا من جهة تاريخ الشرق في التمدن ولا من جهة أن اليابان من بلاد الشرق كما استثنأها اللورد كرومر في تقريره معتذراً بعدم معرفتها . ولكننا نتعرض الى تفسير تلك الجملة المهمة الكثيرة المعاني القليلة الألفاظ التي صدر بها هذا الموضوع في تقرير اللورد . قال الأستاذ سايس : « ان الذين أقاموا في الشرق وحاولوا الاختلاط بأهله يعلمون حق العلم انه يستحيل مطلقاً على الأوربي أن يتحد في النظر مع الشرقي . ومن المحقق أن الأوربي بادىء الأمر يظن أنه هو والشرقي يتفاهان ولكنه يأتي وقت عاجلاً أو آجلاً يرى الأوربي نفسه يحس خجاة أن ذلك كان حلم نائم ويجده أمام انسان ذي ملكات عقلية غريبة عنه بالمرّة حتى ليظنه من سكان زحل » . وبهذا الرأي يدين جناب اللورد كرومر ويحكم به على الشرقيين الذين يعرفهم لا على اليابانيين والصينيين .

صدق الأستاذ سايس اذا كان قوله منصرفاً الى أن الأخوين الشرقي والغربي مختلفان في النظر جداً فيما يتعلق بتفضيل المنفعة المادية على المنفعة الأدبية . أو بعبارة أخرى ان الشرقي بدكائه ، وأطوار تمدنه ، ولغاته المملوءة بضروب المجازات ، وجوّه التقليل الاضطرابات ، وطبيعة أوطانه ، وما ألقه من التقاليد الدينية العريقة في نفسه ، ومواعظ أسلافه الغالب فيها

(١) نشر بالعدد ٤٩ من الجريدة في ٧ من مايو سنة ١٩٠٧ بعنوان « تقرير اللورد كرومر »

تفضيل الزهادة . كل ذلك يجعله يميل بطبعه الى أن يجعل للفضائل الأدبية كالأحسان والكرم والوفاء والأخلاص الديني المقام الأول في حياته الدنيا ويفضلها على المنافع المادية . فميب الشرقي قد يكون في سهولة أخلاقه وسلاسة انقياده كما وصف به أرسطو وكان آسيا الذين يشهد لهم بالذكاء المقتضي صحة الانتاج ، ولكنه حاب عليهم ما ينتجه تأصل طبائع الاستبداد في حكوماتهم . ولا يظن المطلع على تقرير اللورد انه أراد بقوله الاشارة الى تلك الفضائل . خصوصاً انه ليس في مقام مدح الشرقي ولكن الذي يطلع على هذا الموضوع من التقرير يرى انه يريد بيان سلسلتين من الأفكار .

أولاهما - إن أفكار المصريين عقيمة غير منتجة الى حد انه يصعب معرفة مقاصدهم وآمالهم السياسية وأقام على ذلك دليلاً هو ان أفكارهم بعيدة عن تطبيق القاعدة « من يبيع المطلب يبيع الوسيلة » . لأن بعضهم يظهر لجنابه الرغبة المشككة في الرضى عن نتائج الاحتلال دون الرضى عن الاحتلال . وان أحدهم طلب اليه تعيين مهندس انكليزي لتقسيم الماء . وبعضهم طلب قاضياً انكليزياً للفصل في قضية ولا نتعرض هنا لذكر الأشياء التي حملت هؤلاء الأشخاص على مثل هذه الطامبات على فرض أن طامباتهم تؤخذ على شعور المصريين جميعاً . بل نرجى هذا البحث الى الفصل الخاص بالموظفين وغاية ما نورده هنا هو مناقشة القاعدة « من يبيع المطلب يبيع الوسيلة » .

وجد الاحتلال الانكليزي في مصر بركة اطفاء الثورة وتأيد سلطة الخديوية المصرية والمحافظة على المصالح الأوربية ثم تدرجت العلة الى اصلاح شؤون الأمة المصرية واعدادها لتحكم نفسها بنفسها وليأمن الانكليز على حقوقهم التي كسبوها في مصر . ثم ينصرف عنها الاحتلال - متى كان هذا هو غرض الاحتلال وكانت أعمال الاحتلال الظاهرة الحسية تؤيد هذا الغرض ، فيكون المصري الذي يرضى بالنتائج (أي بالاصلاح الذي لاجله جاء الاحتلال) ولا يرضى بالاحتلال هو انسان عقيم النظر حقيقة .

أما وقد رأى المصري رأي العين ان الاحتلال لم يثبت له بالحس ان علة وجوده في مصر هي تأهيل مصر لأن تحكم نفسها بنفسها ، بل رأى بين الغرض من الاحتلال وبين كثير من أعمال الاحتلال في مصر بوناً بعيداً فأشكك عليه الأمر الى حد ان المصري المنصف الكثير التدبر والتروي الذي لا يشوب حكمه على الأمور في مصر غرض من الاهواء يكاد كلما طابق بين علة الاحتلال وبين عمله يقع في روعه أن للاحتلال مقصداً خفياً غير ما يقول الماساة الانكليز . ولا شك في أن مثل هذا معذور اذا رضى بنتائج الاحتلال دون الاحتلال الذي أشكل المقصود منه على العقول .

بشر المصري آماله حين رأى احترام الحكومة للحرية الشخصية التي نشرها الاحتلال والغاء السخرة وغيرها والقيام بالأعمال النافعة ولكنه لم يلبث أن رأى الاحتلال بعد ذلك بقليل قد ظهر في كثير من المواطن بمظهر المعاند فأخذ أولاً يقسم هو والديوية المصرية آراء الناس وأمياطم فأخذ الناس بمقتضى هذه المعاندة بين السلطتين أن يلتجئ كل الى ما يرى في الالتجاء اليه مصلحةه الذاتية لأن المصلحة العامة هي في أن لا يلتجئ الناس إلى أحد الطرفين دون الآخر ، لأن فهو ذلك يضع شخصية الأمة ويجعلها كما كانت لا حق لها إلا الطاعة للامير (إن سميت الطاعة حقاً) — ولا ينكر أحد أن تنازع السلطتين من طبعه أن يجعل العناد يتدخل كثيراً من أعمال كليهما — فلما ظفر الاحتلال بالسلطة قرب كثيراً من الذين لا يهمهم إلا مصالحهم أو زواتبهم ، ثم التفت إلى التعليم العام في المدارس الأميرية فوصل به الى هذا الحد الذي تراه اليوم والذي جعل الحكومة نفسها تشكو قلة الكفاء بل ندرتهم . ثم مال إلى النفوذ الشخصي للحكام الوطنيين بخردهم منه وانحصر عمالهم في الطاعة لغيرهم من الانكاز سواء كانوا رؤساء أو مرعوسين . ثم لم يستبدل بمشاركة الأمة له في الحكم — فاعتقد المصريون أو أغلبهم أن الاحتلال هو لمصلحة انكثرا وأوربا بالذات حتى لقد غلا بعضهم في تقدير فهمه العدل الذي جرى على يد الاحتلال فقال ان انكثرا مهما كانت نياتها بمصر لا يمكنها إلا أن تعدل ما دام أنه لا مصلحة لها في الظلم .

فهل يكون المصري غير منتج إذا بنى فكره على الأعمال المشاهدة من خير وشر وامتنتج من هذه الأعمال نتيجةها الازمة وهي أن الاحتلال قد جاء بفوائد يجب الرضى عنها ولكن تشبه على طريقة حرمان الأمة من الحياة السياسية خطر على الأمة يوجب الضجر والقلق وسوء الظن بالاحتلال كما قدمنا . فتكون النتيجة أن تطبيق القاعدة المذكورة على وجود الاحتلال (وهو الوسيلة) وعلى فوائده (وهي المطلب) من الصعوبة بحيث لا يمكن تطبيقها من غير تعسف إلا إذا أبان الاحتلال لمصر أنه يسمى أيضاً في منح مصر حياة سياسية بالتدريج . والمؤمل أنه يعمل على ذلك . ولا ينكر منصف أن الحكومة امتعت في هذه السنين الأخيرة بأمر نشر التعليم بين طبقات الفلاحين ونجحت في تذليل كثير من الصعوبات التي كانت تقف في طريق تعليم البنات كما سيذكر في فصل التعليم . ولو أنصفت الى ذلك منح الأمة شيئاً من الاشتراك معها في العمل لاقتنع الناس بأن الاحتلال مؤقت وانه لا يقيم إلا ريثما تصالح مصر لحكم نفسها بنفسها . ولأمكن بعد ذلك القول بحق أن من « يعف المطلب يعف الوسيلة » .

ولكن هناك أمراً آخر لا يصح اغفاله لأنه قد زاد أمر الاحتلال إهزاماً على إهزام وهو

ما ذكره اللورد كرومر في خطبته الأخيرة في حفلة الوداع . تلك الخطبة التي هي منصبية في أغلب معانيها على الفرض السياسي الخطر الذي يحاول اقتناع المسلم به من حولين وهو جعل مصر مستعمرة أوروبية مختلطة يكون للأوروبيين فيها الغم وعلى المصريين منها الغرم فكان مهر قبول هذه الفكرة لدى الأوروبيين أن صرح في خطابه بأن الاحتلال باقٍ في مصر إلى ما شاء الله، فكان في هذا التصريح إنباس جديد على الناس . ولكننا مع ذلك نرى أن هذا التصريح ليس من شأنه أن يؤثر تأثيراً جوهرياً في السياسة المصرية لأن وقت الفكرة فيه لم يكن بعد ما دام الانكليز لا يزالون يهدون بأنهم يساعدون على ترقية مصر رقياً سياسياً ومن هذا يرى القارئ أن عدم صحة الفكر المصري في الانتاج لم تأت من طبيعة ولا من عرض ملازم له ، بل أتت من عدم إمكان الحكم على مقاصد انكتران من الاحتلال .

الثانية — هي الجامعة الاسلامية — إن فكرة الوحدة الاسلامية قد تجول أحياناً بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر في الأمور العامة بشيء من التدقيق . ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتخفى تبعاً للحوادث . فكما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شيء يضر بمصلحة مصر أو يبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال إلى الأبد ، قارنوا بين مصر وبين غيرها من ولايات البلقان التي استقلت واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة اسلامية وان أوروبا لا تساعد في الشرق الا الأمم المسيحية فتدنى بعضهم أن لو كان المسادين وحدة كما للمسيحيين في أوروبا هذه الوحدة التي يتخيّلون وجودها وانها كانت الحامل لأوروبا على التداخل في أمر ولايات البلقان وارمينية . نقول ذلك ونحن لا نعرف أنه يوجد في الامة كلمة جامعة مسيحية (بانينكر يستيانسم) كما خلقت كلمة جامعة اسلامية (بانيسلامسم) على أن عقلاء المصريين لا يرون لكلمتيهما وجوداً في العالم ، ولكن السياسة تخلق ما تشاء فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه بعيدة عن أن تؤدي الى اعتداء من جهة المصريين ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الأوروبيين . بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذي خاق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسة الأوروبية في الشرق .

أما كون الجامعة الاسلامية موجودة وجوداً حقيقياً أو انها مقصد من المقاصد التي يسعى المسلمون لتحقيقها فهذا لا دليل عليه مطلقاً ، كما انه لو حاول ايجادها لاستحال ذلك بالمرّة على طلابه . علمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لا شيء يجمع بين الناس الا المنافع فاذا تناقضت المنافع بين قلبين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية أو وحدة في الدين . وإن أبلغ مثال على ذلك هو انشقاق المسلمين على أنفسهم في خلافة أمير المؤمنين

علي بن ابي طالب مما هو مشهور ومأثور . إن أحسن ما قرأنا في أمر الجامعة الإسلامية هو ما ذكره الأستاذ براون في خطابه التي ألقاها في كلية كبرديج سنة ١٩٠٣ وأبان فيها أن الجامعة الإسلامية هي خرافة ابتدعها دماغ مكاتب التيمس في فيينا . قال الأستاذ براون : « انه ليس من السهل تعريف معنى البانسلايميزم بمباراة تنطبق على المثل العربي المشهور «خير الكلام ما قل ودل» ومع الأسف اني امتشرت أحد أصدقائي المسلمين في هذا الموضوع فعرفني معنى « بانسلايميزم » بلا تردّد في بضع كلمات وهي « أن البانسلايميزم هي خرافة خلقها دماغ مكاتب التيمس في فيينا » .

وإن نجسيم الأمر في نفس عميد الاحتلال في مصر الى حد انه قد جعله تعصباً للدين لا محل له بالمرّة . إلاّ اذا كان الغرض منه بعث القلق الى نفوس السياسيين من الأوربيين حتى لقد جرّه ذلك الغرض الى التعريض بأحكام الدين الإسلامي ، وادعى أنها غير صالحة الى ان تطبق في هذا الزمان

قال ذلك بتصريحات كان من عادته ان يتوقاها مراعاة لاحترام الدين الإسلامي ، وتفادياً من جرح شعور المسلمين . نقول على غير عادته لأنه كثير الاحترام للدين الإسلامي كثير الحيطه في التعبير بشيء يتعلق به وكل تصريحاته مستفيضة في هذا المعنى فقد قال في خطبته في كلية غوردون في ٤ يناير سنة ١٨٩٩ |

« ولا يخفى عليكم ان جلالة الملكة ورعاياها المسيحيين من أشد الناس امتعسا كما بعروة دينهم . ولذلك فهم يعرفون وجوب احترام دين غيرهم . على ان حكم جلاتها يظل من المسلمين عدداً أكثر مما يظل حكم أي ملك في الأرض وهم مع ذلك في عيشة هنية وسعادة تحت حكمها الكثير الخيرات ، دينهم موقر وعاداتهم الشرعية محترمة كل الاحترام الخ الخ » وقد كان يؤثر عنه انه كان يشير الى أن المسلمين لا تصلح حالهم إلاّ اذا تمسكوا بدينهم الصحيح . وقد ذكر في تقرير سنة ١٩٠٥ وفي هذا التقرير سنة ١٩٠٦ ما يفيد امتداح الدين امتداح الذين يقومون بخدمة الدين وتحليصه من الدخائل التي متى خلص منها كان موافقاً لحاجات الناس في التمدن الحديث . وخصّ منهم بالذكر فقيد الاسلام المرحوم الشيخ محمد عبده والسيد احمد منشى كلية عليكره . ولهذا المناسبة نورد للقارىء نص الخطاب الذي ألقاه اللورد كرزون في كلية عليكره في شهر مايو سنة ١٩٠١ مشيراً فيه الى فوائد الدين الإسلامي والاعتراف بما للمسلمين من الفضل والمدنية .

« نعم يمكن للمسلمين ان يسابقوا غيرهم اذا هم تعلموا كيف يسابقون وهو ما عرفوه مرة

قبل هذا الوقت في أيام كان فيها للمسلمين السطوة والسلطان وكان قضائهم يحكمون بالعدل بين الناس وفلاصفتهم وأئمتهم يؤثفون الكتب النفيسة »

وان عدول اللورد كرومر عن خطته من عدم التعرض للطعن على الدين الاسلامي بأى صورة ومخالفته لبعض ساسة الانكليز مثل اللورد كرزون في الآراء المتعلقة بأن الشريعة الاسلامية أسمح من أن تعيق عن حاجات التمدن الحاضر، كل ذلك جعل الناس يكادون يجمعون على ان اللورد أراد أن يصور المصريين للانكليز خصوصاً ولاوربا عمومأ بصورة أمة غير قابلة للترقي لتسهل بذلك الموافقة على محو الجنسية المصرية الصميمة التي يحاول عموها منذ عامين . لذلك قصد تجسيم الجامعة الاسلامية وعزها لها ما عزا . على أن المبادئ التي من هذا القبيل لا تنتشر عادة إلا بالدعوة المرتبة التي تقوم بها الجمعيات السياسية أو الدينية فأى جمعية قامت تدعو لمثل هذا الاتحاد في الشرق ؟ اللهم إلا أن يكون الأمر قاصراً على كلمات يقولها بعض الجرائد في الهند أو في مصر من غير أن يكون لها مدلول في الوجود مطلقاً . فإن صح وجود هذه الجامعة فانما وجودها لفظي صرف لا ي لا أراني أغلو اذا قلت ان الواقع في الوجود هو الفرقة الاسلامية لا الجامعة الاسلامية :

بعد ان رأى القارىء ان الجامعة الاسلامية لا أثر لها في مصر ولا نطن لها وجوداً في غير مصر ، وانها على هذه الصفة من العدم ليس من شأنها أن تزيد الجفاء بين الشرق والغرب ولا أن تصلح ذريعة لرجال السياسة الأوربية يتخذونها سترأ يستر أعمالهم في الشرق ، قد يكون من المفيد جداً في هذا المقام أن نتعرض الى مناقشة تلك التهمة الثانية التي يربطها بالجامعة الاسلامية رابطة النسب أو رابطة العلة والمعلول وهي تهمة التعصب الديني .

الدين الاصلاحي^(١) يأمر بالتعاون والتعاقد والائتلاف بين أفراد الأمة كما يأمر بالعدل والاحسان ويوصى خيراً بالمتحالفين له من أهل الأديان الأخرى على الصور المستفيضة في الفقه . وليس من مبادئه مطلقاً التعصب الدائن الذي يعبر عنه الأفرنج « بالفاناتيسم » أهل الدين الواحد يوجد بينهم بحكم وحدة الاعتقاد حب ومماونة تختلف وجوه استعمالها باختلاف الصور العديدة التي تصور ما لهم أفهامهم في الدين . وان هذه الجاذبية الدينية تماثل الجاذبية التي تولدها وحدة العنصر أو وحدة اللغة . ونظن ان الأوربيين لم يقصدوا يوماً « بالفاناتيسم » هذه الجاذبية بوجه ما ، ولكنهم يقصدون بالتعصب الديني معنىً عدائياً هو التحرش بغير المسلمين وحضارتهم والتربص بهم فلا يبقون عليهم - وهذا المعنى لا أصل له في الدين كما لا أصل له في نفوس المسلمين الذين كل جنائيتهم أمام أوربا انهم أخذوا يفكرون في ان ترقى عقولهم بالتعليم وتقصصهم بالحرية وان يدفعوا بجميع الطرق السامية كل مبدأ أو قوة تعمل على الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من الرقي العقلي ليسابقوا غيرهم في الحياة المدنية . وانهم يتعاملون الآن من الأوربيين فكيف يمكن ان يضربوا لهم ما يتجنون به هؤلاء عليهم ليمعدوهم عن كل مدنية وليسهلوا لأنفسهم دوام الاستفادة منهم دون أن يفيدوهم . أظن ان وجه المسألة على هذه الصورة مقلوب الوضع وان المسلمين هم أولى بأن يهتموا الأوربيين بالتعصب ولكنهم لا يريدون ولا يستطيعون .

التعصب الديني شعور لا يمكن للمنصف أن يحكم بوجوده إلاً بآثاره . ومن المشاهد ان الأقباط في مصر يمدشون مع المسلمين مختلفين في المصالح والمساكن متكاتفين في المزارع والأعمال متجاورين على مقاعد المدارس متشاركين في الوظائف والمرافق ولم يسمع من زمان بعيد أن المسلمين الذين قد أمرهم الدين بحسن المعاملة حاج هائجهم على اخوانهم أو ظهروا يوماً بما يقتضيه وجود التعصب الديني في النفوس من الحقد الذي يقدر زنده الاشتراك

(١) نشر في العدد ٥٠ من الجريدة المؤرخ ٨ من مايو سنة ١٩٠٧ بعنوان « تقرير اللورد كرومر :

في المصالح . ومن المشاهد أيضاً ان الرومي يجيء به طلب الرزق الى مصر منفرداً يدخل إحدى قراها البعيدة عن مراكز الحكومة فيتزلف الى كبار أهلها يفسحون له في مساكنها ما جأ يأوي اليه فلا يزال بتجارته الراجعة من بيع الزيتون والخبز بأضعاف القيمة بثمن آجل حتى يصبح ذا مال يقرضه الى الفلاحين بالربا الفاحش ولا يلبث على هذه الحال قليلاً من الزمان إلا وهو دائن لا غالب أهل البلد ينزع ملكية أرضهم ويستخدمهم فيها عمالاً بسطاء . وكل هذا لم يحرك في نفوسهم ذلك التعصب الديني الموهوم . أليس ذلك إلا لأن هذا التعصب عديم الأثر في نفوس مسلمي مصر .

أقيم على هذه التهمة الشنعاء التي اتهم بها المصريون دليلان أحدهما مسطور في تقرير اللورد عن سنة ١٩٠٥ بمناسبة حادثة المهاميل في الاسكندرية . وكان ما فيها أن مصرياً يونانياً تشاجراً على مشترى قطعة من الخبز ، قطع اليوناني المصري طعنة بسكين فتضى عليه . وأعقب ذلك ان يونانياً أراد قتل يوناني آخر بغدارة فأخطأه وأصاب وطنياً فمات فاجتمع رطاع الفريقين وقال بعض فريق المساهين « اقتلوا النصارى »

والثاني حركة حادثة العقبة من اظهار بعض الجرائد أو بعض الناس ميلهم الى تركيا بمناسبة الخلاف بينها وبين الحكومة المصرية على تحديد التخوم المصرية في تلك الناحية . أما الحادثة الأولى فلا تثبت من التعصب شيئاً لأن من الأمور الطبيعية ان الناس ينتصرون لظلم خصوصاً اذا كان من بني جنسهم . وقد روت روتر في الأسبوع الماضي أن روسياً في باريس أطلق الرصاص على جنديين فرنساوين فهم الأهالي بقتله لولا ان رجال البوليس قد أنقذوه من أيديهم ولم يقل أحد بأن انتصار الأهالي في باريس للجنديين كان سببه التعصب الديني . فانتصار الوطنيين للقتيل وانتصار الأروام وغيرهم للقاتل هو من الأمور الطبيعية التي لا تثبت وجود التعصب الديني عند المصريين . لم يبق بعدئذ إلا قول بعضهم « اقتلوا النصارى » فلو صحت نية هؤلاء الصالحين بهذه الصيحة وقابلوا مسيحيين من المصريين أو من السوريين لما مسوهم بسوء . ولكن لفظة النصارى في لغة الرطاع مرادف للأفرنج أو نحو ذلك ، فان كان في نفوسهم عصبية لكانت عصبية جنسية لا عصبية دينية . حادثة العقبة — يحسن بنا أن نلفت نظر القارئ الى سبب الحركة الفكرية التي جرت في مصر إبان حادث العقبة وكان من جرائها ان أساء الانكليز الظن بالمصريين واقتكروا ان هؤلاء يتبرمون بهم ويودون لو استبدلوا الاحتلال التركي بالاحتلال الانكليزي . وان منار هذا التبرم هو التعصب الديني من المصريين للترك . وقد جر هذا التهم الى نتائج مشؤومة ليس هنا محل ذكرها . ولكننا نظن أن الانكليز متى عرفوا السبب الحقيقي لهذه الحركة

وأنصفوا يقلعون عن تهمة المصريين بالتمسب تلك التهمة التي تسوءنا أكثر مما ساءتهم .
 نلتصص علل الأشياء بقيامها على أشباهها ونظائرها . فإذا أردنا أن نلتصص علة هذه
 الحركة الفكرية الخفيفة التي وجدت بمناسبة حادث العقبة حسن بنا أن نرجع بها الى نظائرها
 من الحوادث . ولا نجد حادثة أشبه بها من جميع الوجوه أكثر من حادثة فشوده . فان الانكليز
 كانوا يدفعون الترك عن العقبة باسم الحكومة المصرية لمصلحتها ومصالح الحكومة
 الانكليزية كما كانوا يدفعون الضابط مارشان عن فشوده باسم الحكومتين المصرية
 والانكليزية ولمصلحتهما أيضاً . وكان النزاع بين الانكليز وبين الترك على الحدود الشرقية
 كما كان بينهم وبين الفرنسيين على الحدود الجنوبية المصرية فماذا كان ميل المصريين وقتئذ
 بالنسبة لحادثة فشوده ؟

مضى على حادثة فشوده نحو تسع سنين فمن الناس من لا يزال يذكر الحركة الفكرية
 في مصر وقتئذ ، ومنهم من نسيها أو لم يكن يعرفها فعليه أن يتتبع أقوال الجرائد في مجموعها
 ومفصلها ويحكم بأقوالها على ميل المصريين ان صح ان يحكم على ميلهم بأقوال الجرائد في
 حادث العقبة كما حصل ذلك بالفعل .

للقارئ أن يراجع في هذا الصدد أعداد جريدة المؤيد الصادرة في ١٢ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و
 ٢٠ و ٢١ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٢
 من السنة المذكورة . فيجد انه كان في مصر حركة أفكار تتجه في مجموعها الى إفاضة جاذبية
 الناس الى فرنسا أو الى مارشان وجماعته فكيف جاء هذا الشعور وما مصدره هل كان
 مصدره في النفوس أيضاً تعصباً دينياً لفرنسا أو حب استبدال الاحتلال الفرنسي
 بالاحتلال الانكليزي ؟ لا هذا ولا ذلك . ولكن من الطبائع العمرانية أن الأمة متى أبعدت
 عن إدارة حكومتها وجهات مقاصد حكامها ، أو ظهر لها منهم عين الاستئثار بالمنفعة دونها
 وحملها على ما تهوى وما لا تهوى من غير أن تستشار ، كل ذلك يدعوها الى أن تتبرم
 بحكومتها اذا كانت حكومة وطنية فاذا كانت أجنبية فيكون التبرم والمقاطعة من باب أولى .
 ومثال ذلك الحركة الفكرية للأمة في أوائل الثورة العسكرية سنة ١٨٨٢ فان الأمة كانت
 قلقة تحب الخروج من ذلك الاحتلال العملي الشركسي (ان صح انه كان يسمى احتلالاً)
 وان كان قلقها هذا لم يتعد حد القلق لأنه لم تكن لها في الثورة العسكرية فكرة ثابتة ولا
 مشاركة حقيقية . فهل كان هذا القلق والفتور من حال الحكومة ومن قانون العسكرية الذي
 كان من شأنه اهانة الشعور المصري مترتباً على تعصب ديني من المسلمين ضد المسلمين ؟
 لا شيء من ذلك أيضاً .

فلو استقر أنا كل اللعل الممكنة التي ولدت حركة الأفكار في سنة ١٨٨١ وسنة ١٨٩٨ بمناسبة حادثة فشوده وسنة ١٩٠٦ بمناسبة حادثة العقبة استقراءً صحيحاً خالياً عن الغرض والميل لوجدنا ان العلة في كل ذلك واحدة وهي قلق الأمة من عدم اشراك الحكومة إياها في شيء من الحكم .

ولكن أولى الأغراض عن جهل أو عن سوء قصد، جاءوا يصورون تلك الحركة الفكرية الطفيفة لعميد الاحتلال في صورة التعصب الديني . وهو قد صورها في الصيف الماضي الى أوروبا بصورة مزعجة . كل ذلك والأمة هادئة بعيدة عن التعصب وآثاره .

وانا في هذا المقام نمحض النصيحة لجناب السير عورست أن يعتمد في معلوماته على كبراء الأمة الذين تربطهم به رابطة العمل بالضرورة ، وان لا يسمع قول القائلين بأن في الأمة المصرية تعصباً إذ الواقع ان تلك الأمة ليست كذلك كما أثبتنا بالدليل ، بل هي عطشى الى أن يعترف لها بوجود سياسي كأصغر الأمم ولا يكون هذا الاعتراف إلا إذا أخذ الاحتلال في أن يؤيد دعواه بأن يجعل لأفرادها الموظفين منها ارادة وحرية في عملهم وان يعطي الأمة شيئاً من التداخل الجدي في ادارة شؤونها الداخلية . ومتى حصل ذلك كسب الاحتلال صداقة المصريين واعترافهم الخالص . وأصبح ودم له لا يخفى ، ولا تغير وجهه الحوادث ، وانتبذ القلق بالتعصب الديني الموهوم مكاناً قصياً .

- ٦ -

(١) الانكليز في مصر

هذا عنوان الكتاب الذي نحاول وضعه لبيان خطأ لورد كرومر في كتاب مصر الحديثة وبيان مياسة الاحتمال في مصر والسودان وهو الذي وعدنا بترجمته الى الانكليزية وتوزيعه في أوروبا . وهو ينقسم ثلاثة أقسام .

القسم الأول - في الاسلام : ويشمل الكلام على منار الخطأ في فهم الدين الاسلامي عند الأوربيين الحسني النية . وبيان مقاصد غلادستون والورد كرومر من الطعن عليه . والكلام على الديموقراطية الاسلامية وانها تفضل بنظائرها كل ديموقراطية أخرى من الوجهة الاجتماعية والسياسية . والكلام على المرأة والرق في الاسلام وما ظنه الورد مغمزاً وليس بمغمز . الخ

القسم الثاني : الحالة الاجتماعية في مصر . والقسم الثالث : سياسة الانكليز في مصر والسودان .

وانا ننشر في الجريدة من هذا الكتاب ما يحتمل المقام نشره في الجرائد اليومية أو ما يكون للكافة في مصر مصلحة من نشره .

من موضوعات القسم الاول

النظام الاجتماعي الاسلامي
منار خطأ الأوربيين في فهم الدين الاسلامي

إن القاعدة لا يطعن على عدالتها ومطابقتها للعقول مجرد عدم اتباعها . وإن للدين الاسلامي نظاماً اجتماعياً واسعاً يعرف من اطالع عليه مقدار التسامح الذي أودعه . قال جان جاك روسو ا

« ان قانون ابن اسماعيل (يعني محمداً) الذي يسير عليه نصف العالم من عشرة »
« قرون يشف الى الآن عن عظم واضعه . في حين ان الفلسفة المتكبرة أو التعصب »

(١) نشر بالعدد ٣٣٤ من الجريدة الصادر في ١٤ / ٤ / ١٩٠٨ بعنوان « الانكليز في مصر » او ابتداء كتاب « مصر الحديثة » تأليف اللورد كرومر

« الأعمى لا ترى فيه شيئاً أكثر من أن واضحه ما كر حسن الطالع . ولكن السياسي ،
« الحقيقي يعجب بما في ذلك الشرع من القوة الهائلة والملكمة القادرة التي توجد دائماً في »
« الشرع الخالدة »

قال روسو ذلك وهو ينحني ما استطاع على الدين من غير تفريق . وكان هذا الحكيم
الكبير قد لحظ بعين الغيب اللورد كرومر ومؤلفه « مصر الحديثة » وعناه بالفيلسوف
المتعجرف أو الذي عصب التحيز عينيه فلا يرى الحق من وراء ذلك الحجاب الكثيف . ولم
يكن لورد كرومر في نظر روسو ذلك السياسي الحقيقي الذي يعلم من التشرع مقدار قوته .
وفي الواقع فإن لورد كرومر بكتابه مصر الحديثة قد قضى على البقية الباقية من شهرته
بالسياسي الخناك .

زر كنيسة لاتينية قد ازينت زواياها وجدرانها ببدائع الدهى والتماثيل ، وفرش بعض
حيطانها بفاخر الأثواب وطلبت رائق الألوان الذهبية من الخلاء وأودعت من النفائس
المعدنية والمعجزات الفنية شيئاً كثيراً وتسمع على صلاتها وما انبت فيها من روح الحب . ثم
انظر الى طرائق الحديث بين القسس الطليان وبين مريداتهم من السيدات يأتين يستغفرن
الله على أيديهم من خطاياهن اللاتي أوقعن فيها حب الشهوات والتنامي موقفاً لأوامر
الله وزواجه وطريقة تضرعهن لباطن هذا الغفران ، وابتعد عن قرب ما يخفف به ذلك
القس الشاب أو الشيخ ويلاثن في خوف الآخرة وتعليتهن عن هذا الشقاء الوقي الذي وقعن
فيه بإرادة الشيطان ومواساتهن ووعدهن بالمغفرة مع التوبة . وقس بنفسك مرونة هذا
المشهد الديني الذي يضم في وقت واحد توجه الروح البائسة إلى الله ومحافظة على رقة
العواطف التي اختصت بها الأمم اللاتينية ، تنقل نفسك بشعور الجمال وتجد أن الدين محبة
وان الدين طائفة وأن الدين تسامح وأن الدين يسر لا عسر وأنه لا فارق بين نهوض الروح
الى استغفار الله واستعجاب رحمة وبين وثباتها الى لقاء محبوبها وإظهار اخلاصها له .

ثم زر كنيسة انكليزية عارية الحيطان مجردة عن الزخرف تعرفها عما سواها من الدور
بأنها أبعد ما عن حسن الرواء وأقربها الى التشنونة لا يلفت نظرك فيها شيء من الجمال ولا
دقة في الصناعة بل الذي يلفت نظرك هو استبعاد وجود عمارة نعمة خالية من الرينة في
مدينة زاهرة كلوندره مثلاً . ولا تجد بين راعي الكنيسة والمؤمنين به من أبناء الكنيسة
من علاقة المحبة والوداد إلا ما يكون بين تاجر الفحم وزبائنه . إذا انقضت الصلاة تتكون
انقضت صفقة الاجتماع الوقي فلا اعتراف ولا استغفار ولا غفران ولا مظهر من مظاهر رقة
العواطف اللاتينية .

يظهر من هذا أن كل أمة من الأمم تصبغ دينها بصبغتها القومية التي تظهر في الأخلاق والعادات . وإن الطراوة والمرونة التي تجدها في دين اللاتين والخشونة التي تراها في دين الانكليز، لم تأت إحداهما أو كلاهما من تعاليم المسيح عيسى بن مريم ولا انجيله لأن تعاليمه واحدة - فكان يجب أن تنتج نتائج واحدة . ولكنها جاءت من لين الأخلاق اللاتينية وسرعة تأثر الروح في هذا الجنس وشدة ميلها إلى الزخرف كما جاءت خشونة دين الانكليز من جفاء الأخلاق الانكليزية وحب البساطة والنظر إلى الأمور كما هي نظرة عادية كأن الدين ليس فيه معاني روحية إلاً تجارة بين الناس وبين الله يقضونه حقه فيها بالصلاة ويكون هذا هو كل شيء .

ليقارن القارىء بين مظهر التعاليم المسيحية على لسان وأعمال القديس بطرس وأتباعه حين كان يدعو للدين المسيحي في «الكاتاكومب» في رومه في عهد نيرون الظالم وبين مظهر هذه التعاليم المسيحية عينها على أقوال وأعمال الباباوات والقسس في العصور الأخيرة . وكيف كان الحواريون يدعون إلى الزهادة في الزينة والزخرف والنفور من حب الشهرة ويرشدون إلى عدم المداخلة في السياسة الدنيوية ويقصرون همهم على تعليم الناس أن يسعوا في الاستيلاء على ملكوت السموات وان يعطوا « ما لقيصر للقيصر وما لله لله » وكيف كان الباباوات والقسس الذين جاءوا بعد ذلك يسعون إلى نعيم الدنيا وزخرفها ويضربون بأكبر مسهم في السياسة ويهددون الملوك والسلاطين ويشاركونهم في السلطة الأرضية بل يدعون إلى الحرب وما كان الحواريون يدعون إلاً إلى السلام .

قارن بين قسيسي الأجيال الأولى للدين المسيحي وبين ذلك القسيس الحديث الذي ضرب به المثل الدكتور ماكس نورداو إذ يقول :

« رفعت دعوى لحاكم قسيس على طعنه في حق وزير الديانة في بلده . فوزع القسيس المتهم أوجه دفاعه مطبوعة على الجرائد والجمهور ولما ان حكم عليه بالغرامة فتح اكتتاباً عمومياً حصل منه على عشرة أمثال الغرامة المحكوم بها عليه . ثم نشر مجموعة الخطابات التي جاءته تهنئة له . ثم صاح المملكة طولاً وعرضاً ليري نفسه في كل كاتيدرائية (كنيسة كبرى) للجمهور ليعرفوا شخص ذلك البطل الشهير وكان ذلك فرصة إلى أن يقدم لهم صندوق الصدقة ليجود كل منهم عليه بما شاء »

متى لاحظت هذه التطورات والانتقالات التي تمتور المظاهر التعاليمية للدين المسيحي ورجاله ومتى قسمت هذه الفروق التي تكون بين الدين الواحد في وطنين مختلفين لا تجد مندوحة من القول بأن المنظمات الاجتماعية للدين الاسلامي لم يكن فيها من القصور ما ظنه

اللورد ولكنها هي أيضاً كسائر المنظمات الأخرى قد أبتت القاعدة العامة أي أنها صبغت في هذه الأعصر الأخيرة صبغات الأخلاق التي أورثها الاستبداد لممالك الشرق فظهرت بمظاهر مختلفة للذي لا يهتم بالعلم بدخائل المنظمات الاجتماعية وفلسفة الأديان وتأثير المنظمات على الأخلاق والأخلاق على المنظمات تأثيرات دورية كما هو شأن اللورد كرومر الذي سبغ في بحر الانتقاد من غير عوامة، سوى المستر ستانلي لاين بول الذي تعلم منه ان «الدين الإسلامي كمنظوم اجتماعي أخفق كل الاخفاق» ولكن اللورد أشفق من الفرق في هذا المعنى الواسع فحده بأصول أربعة جعلها أسباباً لحكم المستر ستانلي لاين بول على اخفاق الدين الإسلامي فسردها من غير تدقيق ونظنه في هذا التشويش الفكري وخلاط الواقع من أعمال الحكومات الإسلامية وأعمال بعض الأفراد المسلمين بنفس النظام من حيث هو في ذاته. قد تعبته بالشرقي الذي وصف عقله بأنه يكره التدقيق وينهر منه لمثل جزئي رآه عن بعض محادثيه من الشرقيين على ما نظن .

نعم انه يندر جداً من الأوربيين من علم باللغة العربية علماً كاملاً يؤهله لفهم الاحكام من مصدرها الأصلي وهو القرآن والحديث بل هم يأخذون هذه الاحكام مما ينقله المؤرخون عن أحوال الأمم الإسلامية ومن بعض الأوربيين الذين ساحوا في الشرق وكتبوا عن الاسلام والدول الإسلامية قواعد تلقفوها من بعض المسلمين الذين لا يعاونون دقائق شريعتهم حق العلم . وظنوها حقائق دينية ثابتة وليست من الحق في شيء .

قابلت في جنيف سنة ١٨٩٧ كونتاً شاباً فرنسويّاً على مائدة كبيرة في إحدى الفنادق يجلس عليها جماعات من أمم مختلفة وديانات مختلفة أيضاً وكنت بينهم المسلم الوحيد وقد دار الحديث بين الجماعة على مسألة القضاء والقدر تلك المسألة التي لا أظن العلم يقول فيها أكثر مما قاله «سبنسر» عن «ما تقطع الرجاء من العلم به» فذكرت فيها رأياً إسلامياً يقول باختيار الفرد فيما يقدر عليه من الأعمال وان هذا الاختيار الذي للمخلوق لا ينافي علم الخالق لأن علمه تعالى ليس متوقفاً على الزمان فهو حاصل دفعة واحدة بكل ما كان وما سيكون من الأعمال التي تجري في عالم الكون والفساد - فكان الكون وقتئذٍ يلحظني شزراً ثم دخل الى الكلام في الموضوع وإني لا أعترف له إلا بالجرأة على الخوض فيما لا يعرف وكل رأس ماله في المعلومات عن الدين الإسلامي أنه قضى مدة خدمته العسكرية في «الجزائر» وانه كغالب أبناء الأغنياء يرى من الواجب عليه أن يكون هو صدر المجلس في كل موضوع حتى الموضوعات التي هو أجهل الناس بها . قال :كنت في الجزائر وكانت اقامتي فيها فرصة

ثمينة أخذت فيها بأطراف الدين الاسلامي فأهم فواعده هي هذه القاعدة التي لغرابتها لا يزال صيادها يتردد في أذني الى الآن .

« كل مسلم قابل غير مسلم في مفازة فله حق قتله وله سلبه »

فأضحكني قول هذا الكونت الشاب العالم بالدين وأنكرت عليه ذلك وأقمت له الدليل على ان الدين الاسلامي ليس هو دين الغدر الذي وصفه، ولكنه دين الاخاء والمساواة، دين العرب، دين النجدة والمروءة، فلما أخرج أكد للحاضرين ان هذه القاعدة هي إحدى آيات القرآن .

أظن ان ذلك الشاب لم يتحول الى الآن عن اعتقاده لأن مقالتي له لم يكن ليصادف هوى في فؤاده وعلى ذلك سيبقى على اعتقاده المشوه حتى يكون من أولي الرأي في العلم السياسي مثل « مونتسكيو » أو من أولي الحل والعقد في السياسة مثل اللورد كرومر فإذا كتب عن المسامين أو خطب عن حالهم هفت كتابته وخطابته عن الاعتقاد بصحة تلك القاعدة التي نسبها للاسلام زوراً، ثم أكد انها في القرآن بهتاناً . وما هي من الاسلام ولا منزلة في القرآن ولكنها سقطت على الغالب من فم « أونباشته » إذ كان يحذره من العرب أو من أن يغشى مواطن الشبه أو ينفرد في الاماكن الخالية .

ليس كونتي على جهله وصفه بأول مدّع على الاسلام بل سبقه البارون دي مونتسكيو على عمله، والمستر غلادستون على فضله وشهرته، ولحقه اللورد كرومر على حنكته وعتقه، ان المسلم لا يسعه إلا أن يبتسم اتفاقاً على المؤلفين الاوربيين الحسني النية الذين يرمون الاسلام بما يرمون لأن عاينهم به كما قلت ليس إلا تنقفاً يتلقونها من أفواه الجهالة أو من كتب الساجحين الذين يتخذون عمل فرد من المسامين دليلاً على دينهم كما اتخذ اللورد مهمل أحد المتماحجية^(١) المصريين دليلاً على عقل الشرقيين على العموم .

قال مونتسكيو ا

« ان الدين المسيحي يقوي الحكومة العادلة »

« وان الدين المحمدي يقوي الحكومة الاستبدادية »

فأما كون الدين المسيحي يقوي الحكومة العادلة فهذا لا أنزع مونتسكيو في أمره لأنه أعرف بتواعد دينه وهو حجة في النقل . ولا اعتراض عليه بالحكومات المسيحية من زمن المسيح الى هذا القرن الماضي وما كان للكيسة في تمهيد الحكومة الاستبدادية . لا أقول

(١) صاحب وظيفة صغيرة جداً في مصلحة سكة الحديد؟ فما أعظم ما اعتمد عليه كرومر من المصادر الوثيقة

الاستبدادية ولا الظالمة، بل أقول حكومة الماز التي يلصق فيها بالفرد الذي هو الملك معنى التقديس وإن سلطته أتته من الله لا من الأمة فلا يجوز لأحد أن يخلعه عنها، وإن الأمة ترزق هذه السلطة الملوكية كما ترزق خبزها فإن كان الملك خيراً وسعداً عليها فهو كالرزق المبسوط، وإن كان شراً وبؤساً فهو كالعيش الفئسك، كلاهما خيرها وشرها من الله. تلك هي التعاليم السياسية في القرون الوسطى إلى مونتسكيو نفسه ولوك وروسو وغيرهم من هداة السياسة. لا اعتراض عليه بالحكومات المسيحية لأنني لا أعرف نعتاً سياسياً مسيحياً للحكومات قد ورد في الإنجيل بصورة واضحة ولأنني لا أزال أقول بأن عدم اتباع القاعدة لا يظن عليها. فلو أن في الدين المسيحي نظاماً مسيحياً معقولاً للحكومات (وهذا ما لا أعرفه وأترك الأمر فيه للمسيحيين) لما كان استبداد الحكومات المسيحية يظعن على الدين المسيحي في شيء. نعم أن هناك سياسة قد أخذت مصدرها من التوراة وهي سياسة «بوسوي» ولكنها سياسة مشوهة لا أظن أنها تنطبق على الفكرة الراقية للإيمان بالله. لأن هذه السياسة تدعو إلى الملوكية المطلقة وقد هدمها فولتير بكتاباتهِ. فهل كان مونتسكيو يشير إلى تلك السياسة حين قال «إن الدين المسيحي يقوي الحكومة المعتدلة».

إذا كان مونتسكيو يشير إلى تلك السياسة الاستبدادية التي بنت قواعدنا على الاستنتاج من التوراة فكيف سابع له أن يقول إن الدين المسيحي يهدي إلى الحكومة العادلة وكيف يمكن أن يفهم العدل في حكومة استبدادية أي ملوكية مطلقة. وإن كان مونتسكيو يشير إلى تعاليم سياسية مسيحية أخرى غير التي بناها بوسوي وهدمها فولتير، فذلك له.

ونظن أنه إنما أراد بذلك التوفيق بين مصلحته ومصلحة رجال الكنيسة الذين كانوا لا يزالون أقوياء في وقته. ولسنا نقول ذلك جزافاً كما يقول هو عن الدين الإسلامي بل إننا نرتكن فيما نقول على شهادة «بارتلي سانت هيلبر» إذ يقول في معرض الانتقاد على أن سلطة الملك مستمدة من الله:

«وهذه القاعدة رخصاً عن أن الثورات قد كذبها مراراً وإن بعض الفلاسفة قد حاربوها»
 «فإنها كانت على العموم هي القاعدة المقبولة. وإن مونتسكيو لم يجبراً على مناقشتها لأنه كان»
 «أبعد الناس عن أن يفكر في محاربتها».

وإن هذه الشهادة من العلامة السياسي «بارتلي» على مواطنه «مونتسكيو» في قعوده

عن محاربة قواعد المسف والأستبداد تدلنا على مقدار حب ذلك العالم الكبير للزلفى من الحكومة الحالية وهي استبدادية وقتئذٍ (النصف الأول من القرن الثامن عشر) للكنيسة أثر كبير فيها . وعلى ذلك فليس من المجازفة أن نقول بأن محاباته للدين المسيحي بأنه يقوى الحكومة المعتدلة محابة مشكوك في خلاصها من الهوى الشخصي .

لذلك نرى أن طعن اللورد كرومر على النظام الاجتماعي في الاسلام فرصة ثمينة نذكر فيها طرفاً من الديموقراطية الاسلامية وهل هي خير من ديموقراطية أرسطو وخير من ديموقراطية رومو وانها خلقت من العيوب التي تلاحق بتينك الديموقراطيتين لكي يعلم اللورد كرومر انه لما قال :

« ولا تنس عند الكلام على مسألة إدخال التمدن الأوربي الى مصر ان الاسلام غير قابل للإصلاح أي أن الاسلام ليس اسلاماً بعد اصلاحه بل هو شيء آخر لا نعلم الآن ماذا يكون حينئذٍ » .

قال السير وليم لويز : « ان الأمم المسيحية قد ترتقي في الحضارة والتربية والآداب والفلسفة والعلم والفنون ولكن الاسلام مكث حيث كان وسيتقى كذلك بحسب حكم التاريخ »
قد أساء الى نفسه وأساء إلى العلم وانه وإن صحَّ قول « هيجو » : « ان اللورد عالم بالقراءة والكتابة بقوة القانون » لا يصح أن يكون اللورد عالماً بالشريعة الاسلامية بقوة القانون أيضاً .